فلسفة القوة
عند أبي الطيب المتنبي
(٣٠٣ - ٣٥٤هـ)

أ. د. هاشم صالح منّاع *

* أستاذ الأدب والنقد – جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

كان المتنبي يؤمن بأنَّ القوّة لا تتحقَّق إلاّ بالإدراك العقلي، ولذلك كان يرى الأشياء ويدرك ما خلفها، ويشاهد الواقع وينفذ إلى ما وراءه. والقوّة المطلقة عنده مطلب دينيّ واجتماعيّ وإنسانيّ لا بدّ من التّسلّح بها، لأنّ الإنسان القويّ هو الّذي يصنع التّاريخ، ويكيّف الحياة، ويُسيرِّ الدّنيا، من أجل دفع الضّيم، ورفع الظّلم، وحفظ الكرامة، واستقلال البلاد، ووحدة الأمّة، ونشر الأمن والأمان، ما دفعه هذا الإيمان إلى التّغني بشجاعته وبطولته، وشموخه وإبائه، وهمّته وكبريائه، ومجده وعزّه، وعزيمته وعزمه، وطموحه وأمله، وتفرّده وتميّزه، فهو صاحب موهبة وعبقرية، وذكاء ومهارة، وطموح وأمل، وقول وعمل، ورأي وإقدام، وربّ سيف وقلم، لا يؤمن بالمستحيل، بل يؤمن بتحقيق المستحيل إذا توافرت المقوّمات الّتي ينادي بها، فلم يستسلم ذات يوم، ولم يهادن، فهو ينادي بمبادئ لا يحيد عنها، تتجلّى في أنّ القوّة هي السبيل الوحيد، لأنّ المطالب لا تُحقَّق بالتّمنّي، ولكن تؤخذ الحقوق بالقوّة، وتدرك الغايات غلابا.

تفسير ظاهرة «فلسفة القوة» :

إن العقل والعاطفة طاقتان متمازجتان متكاملتان، تمثلان طاقة واحدة في الإنسان، قد تزيد واحدة على حساب الأخرى، أو تنقص دون حدود أو تتساوى. وبمقدار النقصان في واحدة بمقدار الزيادة في الأخرى. وهذا يعني زيادة طاقة العقل في الإدراك والتفكير في حال نقصانها في العاطفة من الهوى والانفعال، لأن عدم إعمال العاطفة يقوي طاقة العقل، ويقطع عنها التعامل بما تتفاعل معه من الأمور، فتوفر طاقتها لتقوي العقل وتشحذه. إذن، هناك صراع بينهما، إذ لا تتحقق القوة إلا بالإدراك العقلي، لا بالانفعال العاطفي، والمتنبي كان عقلانياً، لا عاطفياً، ولذلك كان يرى الأشياء، ويدرك ما خلفها، ويشاهد الواقع، وينفذ إلى ما وراءه، لأنه كان يؤمن بقوة العقل المطلقة، التي تحقق الأشياء. فقد ألغى من حياته معنى الضعف والذل، والضعة والتخاذل، والخوف والرعب، وبرمج ذاكرته بفلسفة تقوم على القوة التي تتمثل في الجرأة والإقدام، والعزيمة والمغامرة، والشجاعة والكفاح. فالإدراك العقلي عنده مبرمج على تنفيذ الأمور التي خططها ورسمها، فهو مرهون بإدراك أهدافها دون تراجع أو استسلام. فالإيمان بتحقيق ذلك يكون بإعمال الفكر، وكدّ القريحة، من أجل إثراء العقل، وتزويده بطاقة عظيمة وقدرة هائلة على إدراك الأشياء والوصول إليها. وعلى هذا يمكن أن نفسر «فلسفة القوة» التي آمن بها المتنبي، وتبناها، وسعى إليها، وأفنى عمره من أجل تحقيقها، أليس هو القائل: [من الخفيف]

لا افْتِخَارٌ إلاَّ لِمَنْ لا يُضَامُ مُدْرِكٍ أَوْ مُحَارِبٍ لا يَنَامُ

لَيْسَ عَزْماً مَا مَرَّضَ المَرْءُ فيهِ لَيْسَ هَمّاً مَا عَاقَ عَنْهُ الظَّلامُ[1]

(١) البرقوقي، عبد الرحمن، شرح ديوان المتنبي ، ٢١٦/٤. (جعل من نكرة ، وجر: مدرك ومحارب لأنهما وصف لها. يقول: لا فخر إلا لمن لا يظلم لامتناعه وقوته على دفع الظلم ، وهو إما مدرك ما طلب أو محارب لا ينام ولا يغفل حتى يدرك مطلوبه. ولا يعد عزماً ما قصر الإنسان فيه ، لأن ذا الهمة لا يعوقه دون إدراك طلبته شيء).

والقائل :[من الوافر]

إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرَفٍ مَرُومٍ فَلا تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ

فَطَعْمُ الْمَوتِ فِي أَمْرٍ صَغِيرٍ كَطَعْمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ عَظِيمِ[٢]

والقائل:[من الخفيف]

عِشْ عَزِيزاً أَوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ بَيْنَ طَعْنِ الْقَنَا وَخَفْقِ الْبُنُودِ

فَاطْلُبِ الْعِزَّ فِي لَظَىً وَذَرِ الذُّلَّ (م) وَلَوْ كَانَ فِي جِنَانِ الْخُلُودِ[٣]

والقائل :[من الكامل]

ذُو الْعَقْلِ يَشْقَى فِي النَّعِيمِ بِعَقْلِهِ وَأَخُو الْجَهَالَةِ فِي الشَّقَاوَةِ يَنْعَمُ

لا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ[٤]

ويعلق عبد القاهر الجرجاني على البيت الثاني بقوله: «هذا معنى معقول، لم يزل العقلاء يقضون بصحته، ويرى العارفون بالسياسة الأخذ بسنته، وبه جاءت أوامر الله سبحانه، وعليه جرت الأحكام الشرعية، والسنن النبوية، وبه استقام لأهل الدين دينهم، وانتفى عنهم أذى من يفتنهم ويضيرهم، إذ كان موضوع الجبلة على أن لا تخلو الدنيا من الطغاة والغواة المعاندين الذين لا يَعُون الحكمة فتردعهم...فلو لم تطبع لأمثالهم السيوف،ولم تطلق فيهم الحتوف، لما استقام دين ولا دنيا، ولا نال أهل الشرف ما نالوه من الرتبة العليا ...».[٥]

لا شكّ أن «القوة» بصفة عامة هي فضيلة تحفظ مكانة الإنسان، وتبني مجتمعاً قادراً على الصمود والثبات أمام الأخطار المحدقة به، فـ«القوة»مطلب ديني وإنساني واجتماعي، ديني لدرء الخطر المحدق بالدين والنفس والإنسان، يقول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا

(٢) السابق ٤/٢٤٥.

(٣) السابق ٢/٤٥.٤٦.

(٤) السابق ٤/٢٥١.٢٥٢.

(٥) أسرار البلاغة ، ص ٢٦٦.

﴿اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ...﴾[٦] فالقوة هنا لها معان كثيرة منها: أن ترهب بها أعداء الدين، وتحمي دار الإسلام، ومنها أن يدب الرعب في الأعداء، وبذلك يحرر الإنسان.[٧] ويروى عن الرسول ﷺ قوله :(المؤمن القوي خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير...)[٨]. فالقوة هاهنا مطلقة. ومطلب إنساني، لبناء النفس على الاعتداد بالقيم الإنسانية من كرامة وشهامةوعزة، وتحقيق الذات والشعور بها. ومطلب اجتماعي للتعامل مع المجتمع الذي لا يؤمن إلا بالقوة، يقول زهير بن أبي سُلمى:[من الطويل]

وَمَنْ لا يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاحِهِ يُهَدَّمْ وَمَنْ لا يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ[٩]

يبدو أن تكوين المتنبي هو الذي صنع عبقريته، وكل صاحب عبقرية يصاب بجنون القوة التي تولدها العبقرية، وهي في الأصل اللاتيني: «تلك الروح أو القوة الإلهية التي تحفظ الإنسان من المهد إلى اللحد، ثم أصبح معناها: إحدى القوتين الروحانيتين اللتين تسيطران على ضمير الإنسان، تدفعه إحداهما نحو الشر، وتوجهه الأخرى نحو الخير، ثم تطور معناها حتى قُصد بها: ذلك الشخص الحقيقي أو المعنوي الذي يكون له تأثير كبير في غيره من الأشخاص.

وهي ملكة كامنة في نفس الإنسان تمنحه القدرة الفطرية على الابتكار. وقد تدل على استعداد خارق في عمل فرد من الأفراد الذي يرفعه فوق غيره من الناس ويمكنه من ابتداع أشياء تبدو فوق طاقة البشر».[١٠] إذن هي قوة أو طاقة خارقة للعادة، لا يمتلكها كل إنسان، تتمثل في النفس والذات، في الإدراك والتفكير، في الإبداع والاختراع، شريطة أن يتطابق القول والفعل، وأن يدل كل منهما دلالة صادقة على النفس التي يحكمها العقل. والمتنبي تتمثل فيه كل معاني هذه القوة، كما سنبين.

---

(٦) الأنفال :٦٠.

(٧) قطب ، سيد ، في ظلال القرآن ١٥٤٣/٣.

(٨) رياض الصالحين (رقم ١٠٠) ص١١١.

(٩) الزوزني ، شرح المعلقات السبع ، ص ٧٦.

(١٠) مجدي وكامل، وهبه والمهندس معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، ص ١٣٦.

مفهوم القوة عند المتنبي:

انظر معي تقسيمه الناس إلى قسمين، الأول: يتمثل في الجبن والعجز عن اقتحام العظائم، وذلك لسوء الطبع وصغر الهمة، والآخر: يتمثل في الشجاعة في الحكيم، إذ يرى أن العقل لا يغني عن الشجاعة، وهي تغني، وإذا اجتمعا تعززت الشجاعة بالعقل، يقول: [من الوافر]

يَرَى الْجُبَنَاءُ أَنَّ الْعَجْزَ عَقْلٌ وَتِلْكَ خَدِيعَةُ الطَّبْعِ اللَّئِيمِ

وَكُلُّ شَجَاعَةٍ فِي الْمَرْءِ تُغْنِي وَلا مِثْلَ الشَّجَاعَةِ فِي الْحَكِيمِ(١١)

أليس هو صاحب الحكمة التي تقول: إن العقل مُقدَّم على الشجاعة، ولكن إذا عاضد كل منهما الآخر لنفس أبية فإنها تبلغ أعلى مبلغ من العلا :[من الكامل]

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلٌ وَهْيَ الْمَحَلُّ الثَّانِي

فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا لِنَفْسٍ مَرَّةٍ بَلَغَتْ مِنَ الْعَلْيَاءِ كُلَّ مَكَانِ(١٢)

ويعود إلى تقديم الشجاعة والسيف على العقل، لأن المجد يدرك بالسيف لا بالقلم، يقول: [من البسيط]

حَتَّى رَجَعْتُ وَأَقْلامِي قَوَائِلُ لِي الْمَجْدُ لِلسَّيْفِ لَيْسَ الْمَجْدُ لِلْقَلَمِ(١٣)

هذا هو ديدنه، وهذه هي عادته، يتغنى بالعقل ويقدمه على كل شيء، ثم يعود ليضرب على أوتار الشجاعة ويقدمها على العقل، ثم يعود ليعزف على ألحان المال ويقدمه عليهما، يقول: [من الطويل]

فَلا مَجْدَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ وَلا مَالَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ(١٤)

---

(١١) البرقوقي، عبد الرحمن ، شرح ديوان المتنبي ، ٢٤٦/٤.

(١٢) السابق ٣٠٧/٤.(المرة:القوة والشدة، والمراد:الإباء وعزة النفس).

(١٣) السابق ٢٩١/٤.(وفي الكلام محذوف به يتم المعنى تقديره:ما زلت أسافر على إبلي إلى من لا يستحق القصد إليه حتى ...).

إنها مبادئ ليست متناقضة ولا متباعدة، إنها مجرد اختلاف في اللفظ، وتلاعب في التقديم والتأخير، واتفاق في الهدف، إنها كلها تتضافر وتتحد وتقوم على خدمة مبدأ واحد يسعى الشاعر إلى تحقيقه،وهو المجد والعز والعلا .

إن الكفاءة والطموح والمقدرة تردفها العبقرية من أهم المقومات التي ثبتت الدعائم لبناء شخصية المتنبي التي تظهر فيها القوة بوضوح، وتوفر لها كل مظاهر الرفعة والشموخ والكبرياء والتضحية والنضال والكفاح والمغامرة، ناهيك بما أوتي من موهبة شعرية فذة، وفطرة جبلت على الفصاحة والبلاغة والبيان، وقدرة فائقة على التعبير، وشجاعة منقطعة النظير، غذّاها بمهارة الفروسية التي تمثلت بركوب الخيل والضرب بالسيف والطعن بالرمح، إذ وفّر له سيف الدولة كل سبل ذلك.[١٥] فالمتنبي بحقّ، هو صاحب قول وعمل، ورأي وإقدام، ورب سيف وقلم، وحيد عصره، وفريد دهره، وغالب لأقرانه، ومتميز من أبناء زمانه، يقول: [من البسيط]

فَالخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ[١٦]

ويقول لسيف الدولة :[من الطويل]

وَمَا أَنَا إِلاَّ سَمْهَرِيٌّ حَمَلْتَهُ فَزَيَّنَ مَعْرُوضاً وَرَاعَ مُسَدَّدَا[١٧]

فقد أمضى سحابة عمره «وهو يحمل في صدره عزم الشباب، بنفس طموحة، وروح مغامرة، وقلب قلق وثاب. وجنون بالمجد والتعالي والعظمة، وإيمان الواثق من نفسه، وما

---

(١٤) السابق ١٢٣/٢.إن المتنبي في هذا البيت يعلمنا فلسفة تربوية في جمع المال، والاقتصاد به، وينهانا عن تبذيره والإسراف في إنفاقه ، ويبين فلسفته من ذلك قائلاً: «المال ضروري، والمجد غاية ، وكلاهما متوقف على الآخر. إذن، جمع المال عنده لم يكن غاية في حدّ ذاته،ولم يكن الحرص عليه خوف الفقر، يقول: [من الطويل]

وَمَنْ يُنْفِقِ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ مَخَافَةَ فَقْرٍ فَالَّذِي فَعَلَ الْفَقْرُ

انظر :السابق ٢٥٥/٢. فالمال عنده وسيلة لا غاية ، لأنه يؤمن بأن إفناء العمر في جمع المال وعدم إنفاقه كما يجب هو الحرمان ، وهو الفقر في ذاته، ولذلك يرى أن المال يؤدي بل يحقق غايات وأهدافاً.

(١٥) انظر: البديعي ، يوسف، الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ، ص ٧١ .

(١٦) البرقوقي ، عبد الرحمن ، شرح ديوان المتنبي ٨٥/٤.

(١٧) السابق ١٣/٢. (يقول: أنا كالرمح إن حملته بالعرض كان زيناً لك ، وإن حملته مسدداً راع أعداءك).

إلى ذلك من هذه الألوان التي تتلاقى ظلالها في حياة العصاميين الذين يرتفعون بنفوسهم من الضعة إلى قمة المجد وذروة العلاء».[١٨] فهو لا يعرف طريقاً إلى التراجع أو الهزيمة أو الاستسلام، ولا يفكر في الخيبة والتخاذل والهوان، بل كان مصمماً على تخطي الصعاب، ومواجهة الأهوال، واقتحام المجهول من أجل تحقيق الطموح، وإثبات الذات، وهو لا يؤمن بالمستحيل، بل يؤمن بتحقيق المستحيل إذا توافرت المقومات وهو يملكها ولذلك حرص على أن يكون غالباً لا مغلوباً، منتصراً لا مهزوماً، يقول: [من الطويل]

فَلا مُجدَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ ... وَلا مَالَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مُجْدُهُ

وَفِي النَّاسِ مَنْ يَرْضَى بِمَيْسُورِ عَيْشِهِ ... وَمَرْكُوبُهُ رِجْلاهُ وَالثَّوْبُ جِلْدُهُ

وَلَكِنَّ قَلْباً بَيْنَ جَنْبَيَّ مَا لَهُ ... مَدًى يَنْتَهِي بِي فِي مُرَادٍ أَحُدُّهُ[١٩]

وكما نلاحظ فإنه ليس له غاية محددة ينشدها، فغايته تفوق كل الغايات، ولا حدّ لها، فالمال وحده غير كافٍ، والمجد أيضا دون مال غير مجدٍ، ولا بدّ من اجتماعهما معاً، ليحقق بهما بعض ما يطمح إليه، لأن العزة مطلبه، والكرامة غايته، والتفرد شفاؤه، والتميز هدفه، والقوة شرعته، والنضال إيمانه، يقول: [من الخفيف]

إِنْ أَكُنْ مُعْجَباً فَعُجْبُ عَجِيبٍ ... لَمْ يَجِدْ فَوْقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيدِ

عِشْ عَزِيزاً أَوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ ... بَيْنَ طَعْنِ الْقَنَا وَخَفْقِ الْبُنُودِ[٢٠]

ويقول: [من الخفيف]

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بُدٌّ ... فَمِنَ الْعَجْزِ أَنْ تَمُوتَ جَبَانَا[٢١]

هذه صفات لا تتوافر إلا في مثل المتنبي الذي وعاها في بيئته، ونمّاها في ذاته، ورعاها في حياته، ورسخها في شبابه، آمن بأهدافها، وصمم على تحقيق غاياتها .

---

(١٨) د. الكيالي، سامي، مقال بعنوان : «عبرة الشباب»، الهلال ، ص١١٥٣ ،(م٤٣ ، نوفمبر ١٩٣٤).

(١٩) البرقوقي ، عبد الرحمن ، شرح ديوان المتنبي ١٢٣/٢.

(٢٠) السابق ٤٥/٢و٤٧. (يقول: إن كنت معجباً بنفسي فهذا العجب صادر من رجل عجيب لا يرى لأحد مزية يمتاز بها عليه ، فليس عجبي إذاً بمنكر).

(٢١) السابق ٣٧٢/٤.

الافتخار بأهله ونفسه :

إن الذين ذهبوا إلى الطعن بمحتده، ونجابة أصله، سيطر الوهم على عقولهم بحتمية شيوع الفخر بآبائه في كل قصيدة، لكن المتنبي خيَّب ظنهم، إذ اكتفى بالتلميح لا التصريح، وبالإيجاز الذي هو غاية البلاغة، لا بالإطالة والإسهاب، فها هو ذا يقول أنا ابن أبي الذي يفوق أبا الباحث عن نسبي، لأن من يفتخر بجدوده، هو من لا فضيلة له في نفسه، فأنا لا أفخر بسيفي ورمحي، بل هما اللذان يفتخران بي، فحري بالفخر أن يفخر بي، فإني إذا لبسته صار رداءً على منكبي، ونعلاً تحت قدمي: [من المنسرح]

أَنَا ابْنُ مَنْ بَعْضُهُ يَفُوقُ أَبَا الْـ   باحِثِ وَالنَّجْلُ بَعْضُ مَنْ نَجلَهْ

وَإنمَّا يَذْكُرُ الجُدُودَ لَهُمْ   مَنْ نَفَرُوهُ وَأَنْفَدُوا حِيلَهْ

فَخْراً لِعَضْبٍ أَرُوحُ مُشْتَمِلَهْ   وَسَمْهَرِيٍّ أَرُوحُ مُعْتَقِلَهْ

وَلْيَفْخَرِ الْفَخْرُ إذْ غَدَوْتُ بِهِ   مُرْتَدِياً خَيْرَهُ وَمُنْتَعِلَهْ(٢٢)

ويقول في رثاء جدته التي هي بمنزلة أمه: إنه لو لم يكن أبوك أكرم والد لكان كونك لي أمّاً بمنزلة أب عظيم تنتسبين إليه: (من الطويل)

وَلَوْ لَمْ تَكُوني بِنْتَ أَكْرَمِ وَالِدٍ   لَكَانَ أَبَاكِ الضَّخْمَ كَوْنُكِ لي أُمّا(٢٣)

ويقول معتزاً بنفسه لا بقومه على الرغم من أنهم من خيرة العرب وفخرهم جميعاً وبهم غوث الطريد: [من الخفيف]

لا بِقَوْمي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بي   وَبِنَفْسي فَخَرْتُ لا بِجُدُودي

وَبِهِمْ فَخْرُ كُلِّ مَنْ نَطَقَ الضَّا   دَ وَعَوْذُ الجْاني وَغَوْثُ الطَّريدِ(٢٤)

---

(٢٢) السابق ٣/٣٨٣-٣٨٤. (والنجل: الولد. ونجله أبوه: ولده. والمنافرة: المفاخرة انظر اللسان: نفر وأنفذوا: أفرغوا وأفنوا. ومعتقله: متقلده).

(٢٣) السابق ٤/٢٣٣.(أي إذا قيل لكِ أم أبي الطيب قام ذلك مقام نسب عظيم لو لم يكن لك نسب).

(٢٤) السابق ٢/٤٦.(يقول الواحدي:لو اقتصر المتنبي على البيت الأول لكان ألأم الناس نسباً، لكنه قال بعده البيت التالي. انظر: شرح ديوان المتنبي، الواحدي ، ص٣٥).

يقال : «إن المتنبي سئل عن نسبه، فما اعترف وقال: أنا رجل أخبط القبائل، وأطوي البوادي وحدي، ومتى انتسبت لم آمن أن يأخذني بعض العرب بطائلة بينه وبين القبيلة التي أنتسب إليها، وما دمت غير منتسب إلى أحد فأنا أسلم على جميعهم، ويخافون لساني»[٢٥]. ويستفاد من هذا الخبر أنه يربأ بنفسه عن الدخول في الخلافات القبلية، ويترفع عن خوض النزاعات فيها، لأنها خلافات تثير الأحقاد، وتشعل الضغائن لأتفه الأسباب، وهذا يعني أن قبيلته التي ينتمي إليها، هي قبيلة لها صراعات مع القبائل الأخرى، وصولات وجولات، مما يؤكد أنها تحمي جانبها بقوتها مثل أية قبيلة عربية عريقة. ومثلما ترفع عن الخوض في تلك المنازعات، فإنه أغفل ذكر آبائه الذين تربطهم العصبية بتلك القبيلة خشية الثارات، فهو شاعر يسعى إلى تحقيق المجد الذي ينشده، ويطمح إليه، له ولآبائه، لا أن يرث عنهم المجد سهلاً، فمن أتاه السهل سهلاً هان عليه، ومن حقق الصعب بالتضحية والكفاح حرص على تثبيت أركانه .

ألا تكفي هذه الإشارات الموحية، والدلالات الواضحة التي ترد على من حط من قدره، لتثبت له أن أصله العربي معروف، ونسبه مشهور، وحسبه موفور، ولم يكن ذلك المحتد الوضيع الذي تحدث عنه المؤرخون. وإني أرى أن كثرة الحديث عن الآباء والأجداد والافتخار بهم لا تعدّ من الفضائل العظيمة، بل قد تؤدي إلى نقائص وإلى تكرار لا طائل منه، فالإشارة تكفي، وتؤدي المطلوب، وتحقق الهدف، فقوة الأساس ومتانته تدل على علوه وشموخه وثباته وقوته وصموده .

والجدير بالذكر أن كون والده يعمل سقاء خامل الذكر[٢٦] لا يغض من عراقة أصله، وطيب محتده، وليس بالضرورة أن يتحدث عن نسبه حتى يكون عظيماً «فأصل الفتى ما قد حصل»، وكان بإمكانه أن يتحدث عن أصوله كما فعل غيره ممن لا أصل له[٢٧]. وأظن أنه ليس بالضرورة أن يتحدث الإنسان عن حياته الاجتماعية، لأنها خصوصية لا يجبر المرء

(٢٥) انظر: البغدادي ، الخطيب ، تاريخ بغداد ١٠٣/٤.

(٢٦) انظر: السابق. وابن خلكان، وفيات الأعيان ، ١٢٤/١. يروي الخطيب البغدادي في تاريخه(١٠٣/٤) عن القاضي أبي الحسن قوله:كنت أعرف والد المتنبي بالكوفة شيخاً يسمى عبدان يستقي على بعير له، وكان جعفياً صحيح النسب.

(٢٧) انظر مزيداً من التفصيل عن هذه الظاهرة كتاب: « بشار بن برد حياته وشعره » ص ٨-١٠.

على التصريح بها، بل عليه أن يحتفظ بتلك الخصوصية لنفسه، فكثير من العظماء لم يسجل التاريخ عنهم شيئاً سوى أنه خلد أعمالهم وأمجادهم، ولم يكل لهم الاتهامات، ولم يغض من قدرهم ومكانتهم. وعلى أية حال، فإن غاية المتنبي تتمثل في تحقيق الذات، ليضيف رصيداً إلى أرصدته، ومجداً إلى مجده، ولست بصدد الانتصار له بشأن هذه القضية أو تلك، وليس هذا البحث معنياً بالدفاع عنه، بقدر ما هو مهتم بتفسير ظاهرة القوة والعزيمة عنده.

قانون القوة عند المتنبي :

إن المتنبي جعل مقومات قصائده تقوم على هذه المعاني، فأصبحت في قوة دفقها مظهراً من مظاهر الديمومة في الأثر المسيطر على نفس القارئ، ولا يزول أثرها بانتهاء النص أو انقطاعه عن السمع لما يحدثه من دوي في المتلقي، بل يفجر بركاناً في داخله، لأنه يثير كوامن دفينة، لذلك احتضنه ذهنه، واستوعبته ذاكرته، وهذا يجعله نغماً تتردد أصداؤه بلا انقطاع، مما يقوي التفاعل بين المرسل والمتلقي، ذلك أن الوسيلة بين الطرفين هي عبارة عن طاقة ينبوع لا ينضب، تصدر عن الأول لتصب في الآخر، لتنعشه وتغنيه وتثريه، دون انقطاع، لتحدث فيه ارتواءً وصخباً وثورة ومتعة، انظر معي قوله: [من الطويل]

عَلى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ

وَتَعْظُمَ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعَظَائِمُ(٢٨)

هذان بيتان في الحكمة، يمثلان (قانون القوة) الذي يؤمن به الشاعر، وهو سر عبقريته، ذلك أن العزيمة والثبات والشدة فيما يعزم عليه الإنسان بصدق تحقق أعظم الأهداف، وأبعد المرامي، مهما تقلبت الأحوال، وعظمت العقبات، لأن النفس القوية الكبيرة تستهين بالصعاب، بل تتحداها، وتربأ عن الصغائر وتحتقرها وتتخطاها إلى المرامي التي تحقق الغايات. ولا يصرح بهذا ولا يصوره إلا صاحب نفس كبيرة، وصاحب مبدأ عظيم، وطد نفسه على روح الثورة، ووطنها على ما يجب أن يقوم به ويفعله بكل صبر وثبات، فهي

(٢٨) البرقوقي ، عبد الرحمن ، شرح ديوان المتنبي ٤/ ٩٤

بحق إرادة تواجه الصعاب، وتسيرّ الإنسان في الدنيا بقوة العقل والطموح دون استسلام أو تراجع، وهو بذلك يرسم سياسة واضحة لنفسه ولغيره، ويقسم الناس إلى قسمين لا ثالث لهما، يقدّس الأول ويتغنى به، وفيه أصحاب المكارم والعزيمة، ويحتقر الآخر، بل يمسخه، وفيه أصحاب النفوس الضعيفة الخائرة والهمم الصغيرة الحقيرة، ويظل هذا القسم في الدناءة والخسة إلى أن ينفض عنه هذه الصفات، ويغسل نفسه من هذا العار ويطهرها، ليسمو بها ويضمها إلى القسم الأول، وبذلك يحوز على الإعجاب الذي كان يفتقر إليه وينشده. وكما نلاحظ فإنه يضع قاعدة ثابتة بهذه الحكم التي لا تحتاج إلى إقامة الدليل وإيراد البرهان، لأنها تعبر عن قانون سليم لا مجال للشك فيه، يستند إلى استبداد في التطبيق، وقوة في التنفيذ. ولا غرابة في ذلك، لأن هذا الرأي لا يصدر إلا عن صاحب مبدأ يعمل بعادته، وما تعوده دون تصنع أو تكلف، يقول: [من الطويل]

❖ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا ❖[٢٩]

فهذا الشطر يعبر عن فكرة ذهنية نابعة من تجربة الشاعر في الحياة، أعلنها بشكل تعميمي حقيقة مطلقة، متحدة بالنفس، تناولها العقل، وانتظمها في مبادئ ونظريات، وهو يستخلص المبادئ العامة من خلال المظاهر الخاصة، وهو شأن من شؤون الفلسفة.[٣٠] وقد شاعت هذه القضية في شعر المتنبي، وخاصة في حِكَمه، انظر قوله:[من الطويل]

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكْتَهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

وَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلَا مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى[٣١]

إن العنصر العقلي الصرف هو العنصر الطاغي على هذه الحقيقة الإنسانية التي وعاها العقل وخلص إليها بالخبرة والتمرس في مواقعة الناس، لأنها تصف طباعهم وتحكم عليها، فهي معادلات فكرية ذهنية صرفة تقوم على التفصيل والمقابلة.[٣٢] وعلى أية حال، فإن

(٢٩) السابق ٣/٢.

(٣٠) انظر: الحاوي، إيليا، في النقد والأدب، ص ٢٣٣ ٢٣٤ .

(٣١) البرقوقي، عبد الرحمن، شرح ديوان المتنبي١١/٢.

(٣٢) انظر: الحاوي، إيليا، في النقد والأدب، ص ٢٣٤.

الحديث حول هذه القضية يطول، ولسنا بصدد دراستها، وهدفنا من إيراد ذلك هو بيان تلك النفس التي اعتمدت القوة سبيلاً لإقرار المبادئ، وإظهار الحقائق، وإدراك الغايات، ذلك أنها ليست هدفاً بحدِّ ذاتها بقدر ما هي وسيلة ناجعة في الوصول إلى تحقيق الغاية.

ترفع المتنبي عن الدنايا :

نحن أمام ظاهرة لا تتكرر في التاريخ، وشاعر ليس كالشعراء، فهو يربأ بنفسه عن مجاراتهم والسير في ضروبهم، فلما كانوا وغيرهم من سادة القوم يرتادون مجالس القيان، تفتنهم هذه وتسيطر عليهم تلك، يتمايلون طرباً تحت تأثير الخمر، كان المتنبي يترفع عنها، ويأبى المشاركة بها، لأنها تذهب العقل، وتحول دون الوصول إلى المجد الذي ينشده، فنيل المطالب معقود بحد السيوف، وتحقيق المآرب مرهون بالقتال والنضال والتضحية، يقول: [من الطويل]

وَلا تحْسَبَنَّ الْمَجْدَ زِقّاً وَقَيْنَةً فَمَا الْمَجْدُ إلاَّ السَّيْفُ وَالْفَتْكَةُ الْبِكْرُ

وَتَرْكُكَ فِي الدُّنْيَا دَوِيّاً كَأَنَّمَا تَدَاوَلَ سَمْعَ الْمَرْءِ أَنْمُلُهُ الْعَشْرُ(٣٣)

وهو يرى أنه قوي، يشعر بالقوة، بل يمتلكها، والقوي هو الذي يكيف الحياة ويسير الدنيا، والضعيف هو الذي تتقاذفه الحياة وتسيره الدنيا. إن غرض المتنبي بعيد لا يرضى بما يرضى به الناس، من مثل لَهْوِهم بشرب الخمرة، لأنه عالي الهمة، رفيع القدر، لا يعدّ نفسه منهم على الرغم من أنه يعيش بينهم، فهم صغار في أقدارهم وهممهم، وإن كانوا ضخام الأبدان، يقول: [من الوافر]

فُؤَادٌ مَا تُسَلِّيهِ الْمُدَامُ وَعُمْرٌ مِثْلُ مَا تَهَبُ اللِّئَامُ

وَدَهْرٌ نَاسُهُ نَاسٌ صِغَارٌ وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ جُثَثٌ ضِخَامُ

ومَا أَنَا مِنْهُمُ بِالْعَيْشِ فِيهِمْ وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ(٣٤)

(٣٣) البرقوقي ، عبد الرحمن ، شرح ديوان المتنبي ٢/٢٥٣.

(٣٤) السابق ٤/١٩٠ ١٩١.

إيمانه بمبدأ القوة المطلقة :

إنه يؤمن إيماناً مطلقاً بالكفاح والتضحية، وإدراك الغاية، فالجسم والروح عنده جاران، والعمر دارهما، وصحبتهما تكون مدة العمر، فإذا فني العمر افترقا، يقول: [من الطويل]

ذَرِ النَّفْسَ تَأْخُذْ وُسْعَهَا قَبْلَ بَيْنِهَا فَمُفْتَرِقٌ جَارَانِ دَارُهُمَا الْعُمْرُ(٣٥)

فعلى الإنسان أن يترك نفسه تأخذ ما تطيق مما تصبو إليه من لذة أو مال أو جاه، لأنها مفارقة الجسد لا محالة. أيُّ نفس هذه؟ وأي شخص يمتلك مثل هذه القوة والشجاعة؟ إنها نفس مترفعة أبية، تشتهي الموت في ميادين القتال، فإذا أدركت ما تشتهيه، فكأنها الحياة، يقول: [من الوافر]

فَمَوْتِي فِي الْوَغَى أَرَبِي لأَنِّي رَأَيْتُ الْعَيْشَ فِي أَرَبِ النُّفُوسِ(٣٦)

ويرى أن لذته ومتعته تتحقق في اقتحام المهالك التي هي غاية ألم النفوس: [من البسيط]

سُبْحَانَ خَالِقِ نَفْسِي كَيْفَ لَذَّتُهَا فِيمَا النُّفُوسُ تَرَاهُ غَايَةَ الأَلَمِ(٣٧)

وعلى الرغم من تكالب أرزاء الدهر عليه وترادفها فإنها غلَّفت قلبه بسهامه، فإذا رماه بسهام أخرى فإنها لن تصل إلى قلبه، لأنها لن تجد لها موضعاً للإصابة، وإنما تتكسر نصالها على النصال التي قبلها، ولذلك هان الدهر عليه، ولم يعد يأبه بمصائبه وأهواله، لأن المبالاة لا تنفع، والحذر لا يفيد، يقول: [من الوافر]

رَمَانِي الدَّهْرُ بِالأَرْزَاءِ حَتَّى فُؤَادِي فِي غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِ
فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْنِي سِهَامٌ تَكَسَّرَتِ النِّصَالُ عَلَى النِّصَالِ
وَهَانَ فَمَا أُبَالِي بِالرَّزَايَا لأَنِّي مَا انْتَفَعْتُ بِأَنْ أُبَالِي(٣٨)

---

(٣٥) السابق ٢/٢٥٣ .

(٣٦) السابق ٢/٣٠١.

(٣٧) السابق ٤/٢٩٥

(٣٨) السابق ٣/١٤٢ .

وهو يرى أن العلا الذي لم ينل من قبل يمكن أن يناله بركوب الأمر الصعب، وتحمل تكاليفه، ولذلك عليه أن يبذل نفسه، ويعرضها للهلاك من أجل الوصول إليه، لأن المعالي لا تدرك إلا بذلك، يقول: [من الطويل]

ذَرِينِي أَنَلْ مَا لا يُنَالُ مِنَ الْعُلا فَصَعْبُ الْعُلا فِي الصَّعْبِ وَالسَّهْلُ فِي السَّهْلِ

تُرِيدِينَ لُقْيَانَ الْمَعَالِي رَخِيصَةً وَلا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبَرِ النَّحْلِ(٣٩)

وما كان المتنبي جباناً ولا خوافاً، ولا ضعيفاً ولا نكساً، وكان يرى أن الإنسان إذا ساوره الخوف، وسيطر عليه الجبن، فإنه لا يدرك مطلبه، ولا يحقق طموحه، ولا يقضي حاجته، يقول :[من السريع]

وَلا قَضَى حَاجَتَهُ طَالِبٌ فُؤَادُهُ يَخْفِقُ مِنْ رُعْبِهِ(٤٠)

عزيمته لا تقهر :

إن القوة عنده يخضعها وفقاً لمزاجه، وطبقاً لشخصيته، فهو إنسان واقعي، لا يترك مجالاً لعواطفه أن تذهب به كل مذهب من الآمال البراقة، والأماني الخلب، فهو يدرك كل ما يريد بالعقل الذي تحكمه الأفكار ويحكمها بعد أن احتكمت إلى عبقرية فذة، وثقة بالنفس تردفها عزيمة قوية، وهمة قعساء، أليس هو القائل: [من الطويل]

وَإِنِّي إِذَا بَاشَرْتُ أَمْراً أُرِيدُهُ تَدَانَتْ أَقَاصِيهِ وَهَانَ أَشَدُّهُ(٤١)

فهو يصور نفسه، ويتحدث عنها في حلّه وترحاله، في قوله وفعله، في شعره ونثره، ولذلك فرض احترامه على الناس، وأجبرهم على الإعجاب به دون حاجته إلى أن ينشد عطفهم، ويستجدي حبهم، فهو قوي في عقله، قوي في نفسه، قوي في ذاته، بعيد في غايته. والأدلة على ذلك كثيرة، نسوق منها على سبيل المثال لا الحصر، قوله في الاعتداد بنفسه وشعره: [من البسيط]

أَنَا الَّذِي نَظَرَ الأَعْمَى إِلَى أَدَبِي وَأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمُ

(٣٩) السابق ٤/٤.

(٤٠) السابق ٣٣٨/١.

(٤١) السابق ١٢٧/٢.

أَنَامُ مِلءَ جُفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الخَلْقُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ
وَالخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ(٤٢)

وقوله في علو همته، وشموخ منزلته، ورفعة درجته: [من المنسرح]

وَكَيْفَ لا يُحْسَدُ امْرُؤٌ عَلَمٌ لَهُ عَلَى كُلِّ هَامَةٍ قَدَمُ(٤٣)

وقوله في الطمع والطموح، وبيان المقصد: [من الطويل]

وَغَيرُ كَثِيرٍ أَنْ يَزُورَكَ رَاجِلٌ فَيَرْجِعَ مَلْكاً لِلْعِرَاقَيْنِ وَالِيَا(٤٤)

وقوله في المغامرة وركوب الأهوال: [من الطويل]

تَمَرَّسْتُ بِالآفَاتِ حَتَّى تَرَكْتُهَا تَقُولُ أَمَاتَ المَوتُ أَمْ ذُعِرَ الذُّعْرُ؟؟
وَأَقْدَمْتُ إِقْدَامَ الأَتِيِّ كَأَنَّ لِي سِوَى مُهْجَتِي أَوْ كَانَ لِي عِنْدَهَا وِتْرُ(٤٥)

وقوله في التميز والتفرد: [من البسيط]

إِنِّي أَنَا الذَّهَبُ المَعْرُوفُ مُخْبِرُهُ يَزِيدُ فِي السَّبْكِ لِلدِّينَارِ دِينَارَا(٤٦)

وقوله في بُعد غرضه، وتعذر مرامه، وبيان حقيقته، وإظهار تميزه: [من الوافر]

وَدَهْرٌ نَاسُهُ نَاسٌ صِغَارٌ وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ جُثَثٌ ضِخَامُ

---

(٤٢) السابق ٤/٨٣ –٨٥. ويعلق المازني على هذه الأبيات بقوله: إنه من أصحاب الشخصيات القوي التي خلقت للكفاح والنضال لا للاستجداء والتمسح بالأقدام، وهذه الشخصية البارزة ظهرت في شعره... وكلامه ليس بكلام مداح مأجور، وما كان ليصدر عنه لولا شعوره بنفسه وبحقه وأنه فوق أن يعدّ أحد الأذيال. حصاد الهشيم ، ص ١٢٨–١٢٩.

(٤٣) البرقوقي ، عبد الرحمن ، شرح ديوان المتنبي ٤/١٨٠.

(٤٤) السابق ٤/٤٢٧. (العراقان:الكوفة والبصرة.وقيل:عراق العرب وعراق العجم) انظر: ابن منظور، اللسان: عرق. والحموي، ياقوت ، معجم البلدان ٤/١٠٥.

(٤٥) البرقوقي، عبد الرحمن، شرح ديوان المتنبي ٢/٢٥٣.(الآفات:العاهات التي تصيب من يتصدى للأخطار. والأتي: السيل القوي.والوتر:الثأر).

(٤٦) السابق ٢/٢٤٤.

وَمَا أَنَا مِنْهُمُ بِالْعَيْشِ فِيهِمْ وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ(٤٧)

وقوله في عدم وجود النظير له أو الشبيه،في بعد الهمة والمنزلة:[من الطويل]

أَمِطْ عَنْكَ تَشْبِيهِي بِمَا وَكَأَنَّه فَمَا أَحَدٌ فَوْقِي وَلا أَحَدٌ مِثْلِي(٤٨)

دوافع التغني بالبطولة :

هناك أسباب كثيرة دفعته إلى التغني بهذه البطولة، منها: شخصيته، وعروبته، وأصالته، ومحتده، وذكاؤه،(٤٩) وشاعريته، وثقافته، وعبقريته، وفروسيته، وتفوقه، وتميزه، وطموحه، وطمعه، وإعجاب الناس بشعره وافتنانهم به، واحتضان الملوك والأمراء له، واحتلال المناصب من غير العرب، والوضع السياسي المتدهور، والحياة الاجتماعية الصعبة، أضف إلى ذلك أنه «نشأ ثائراً، يشعر بعروبته شعوراً عميقاً، يريد أن يرد للعرب دولتهم المفقودة، وحمل السيف وسلّه، ولم يكتب النجاح لثورته، غير أن نفسه ظلت تموج بالثورة ومنازلة الأعداء، وأيضا بأنه كان فارساً يمجد الفروسية، وبذلك اجتمعت له عناصر مادية ونفسية كثيرة ».(٥٠)

لم يكن المتنبي شخصاً عادياً في عبقريته وقوته وطموحه، ولم يكن العصر الذي عاش فيه عصراً يحقق له ما يصبو إليه، بل «كان عصر مغامرات ودعاوى سياسية، ودعاوى دينية، وخصومات مذهبية، وشكوك جاءت من التفكير والاطلاع، وشكوك جاءت من اللجاجة في المناقشة والحوار. وكان أناس من طلاب المناصب يرتقون في ذلك العصر، كما ارتقوا في العصور التي قبله إلى مناصب الوزارة، وليست لهم من شفاعة في الظاهر غير شفاعة الكتابة والأدب، فكان في العصر ما يغري الأديب المغامر بالتطلع إلى جاه الدنيا من

(٤٧) السابق ٤/١٩٠.

(٤٨) السابق ٣/٢٨١.

(٤٩) يروي لنا الخطيب البغدادي عن ورّاق لازم المتنبي يقول: ما رأيت أحفظ من هذا الفتى. قيل له: كيف؟ قال: كان اليوم عندي وقد أحضر رجل كتاباً من كتب الأصمعي في ثلاثين ورقة تقريباً ليبيعه. قال: فأخذ ينظر فيه طويلاً. فقال له الرجل: يا هذا أريد بيعه ، وقد قطعتني عن ذلك ، فإن كنت تريد حفظه من هذه المدة ، فبعيد. فقال له: إن كنت حفظته فما لي عليك ؟ قال: أهب لك الكتاب. قال: فأخذت الدفتر من يده فأقبل يتلوه عليّ إلى آخره ثم استلبه فجعله في كمه ... انظر: تاريخ بغداد انظر: البديعي ، يوسف، الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ، ص ٢٠.

(٥٠) د. ضيف ، شوقي ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص ٣٤٧.

طريق المغامرة، ومن طريق البراعة الأدبية. وكان المتنبي رجلاً لا يعوزه الاعتداد بالنفس، ولا الطمع في الجاه، ولا ملكة البلاغة، والقدرة على المنظوم والمنثور، مع شيء من الفروسية كما ثبت من مجمل تاريخه ومجمل كلامه». (٥١)

إحساسه بالكبرياء :

إن المتنبي صادق في قوله، صادق في فعله، يتطابق القول عنده مع الفعل، ظاهره مثل باطنه، كانت له دالة على الملوك والأمراء، ما دفع بعض النقاد إلى اتهامه بـ «جنون العظمة» الذي عدّوه مرضاً نفسياً، مبعثه الصلف والغرور والخيلاء.(٥٢) وقد رأى الأستاذ طاهر أحمد الطناحي «أن هذه الصفة فضيلة خلقية، وأنها لم تكن صادرة عن صلف وغطرسة، بل عن اعتداد بقيمة الفن، واحتفاظ بالكرامة».(٥٣) إن حبّ الثناء فطرة في الإنسان، لأنه إحساس بالكبرياء التي هي عمود الإنسانية فيه. ولا تكون الكبرياء رذيلة ممقوتة إلا إذا جاوزت مقدارها الطبيعي، فهي حينئذ تنقلب صلفاً، وتدخل في حكم الطباع المتكلفة، ولا تحدث في النفس إلا وهماً وغروراً.(٥٥) وإذا أخذنا بهذه المقولة، وآمنا بصحتها، اتفقنا مع المتنبي بعمق إيمانه بالكبرياء التي يرى أنه من حقه أن يحوز عليها، لأنها طبيعة فيه، ولذلك يرى تفرده بها، وتميزه من غيره، فلا يشاركه بها أحد من أبناء عصره، ولا ينازعه فيها أحد، لأنه سبر أغوار نفسه، وعرف حقيقته، فأخذ يتفهم جوانب القوة الثائرة في ذاته. ولما بلغ من نفسه القناعة بأنه خبر ذاته، واكتشف إمكانياته، رسم الطموحات التي تتفق مع عبقريته وقوته، ولذلك كانت له فلسفة في الحياة لا يحيد عنها، تتناسب مع عزيمته وهمته، يقول: [من الخفيف]

إِنْ أَكُنْ مُعْجَباً فَعُجْبُ عَجِيبٍ لَمْ يَجِدْ فَوْقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيدِ

---

(٥١) العقاد، عباس محمود ،مقال بعنوان: «شخصية المتنبي في شعره»، الهلال،ص ١١٢٢(مج٤٣سنة١٩٣٤).

(٥٢) صدقي ، عبد الرحمن ، مقال بعنوان: «جنون العظمة في المتنبي»، الهلال ، ١١٧٧(مج٤٣ سنة ١٩٣٤).

(٥٣) السابق نفسه.

(٥٤) الرافعي ، مصطفى صادق ، تاريخ آداب العرب ٣/٩٤.

(٥٥) مطران، خليل ، مقال بعنوان : «أبو الطيب المتنبي»، الهلال ، ص ١١٤٢(م ٤٣ سنة ١٩٣٤). وانظر بشأن ادعائه النبوة: الثعالبي، يتيمة الدهر ١/١١٢ وما بعدها .وتاريخ بغداد ،البغدادي ٤/١٠٤.

أَنَا تِرْبُ النَّدَى وَرَبُّ الْقَوَافِي وَسِمَامُ الْعِدَا وَغَيْظُ الْحُسُودِ
أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارَكَهَا اللَّـ ـهُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثَمُودِ(٥٦)

وأغلب الظن أن البيت الثالث فيه دعاء على أمة أدركهم، لعل الله يدركهم بالهلاك لينجو منهم. ويعلق الأستاذ طاهر الطناحي على هذه الأبيات بقوله: «ولا يشكو هذه الشكوى إلا الفنان الذي يفهم قيمة فنه، ويرى الوسط المحيط به لم يفهم هذا الفن أو هذه النبوة في الفن التي تفرد بها في قومه كتفرد (صالح) بنبوته في (ثمود). فهو إنما يعتبر رسالة الفن كرسالة النبوة تخدم كل منهما الحياة البشرية من ناحيتها الخالصة بها. ومن أجل ذلك يجب تعظيمها وتعظيم صاحبها، وأن يُعْطَى حقه من الإجلال والإكبار».(٥٧) ولا شك أن «القوة»الكامنة في نفس المتنبي، و«القوة» الظاهرة في شخصيته، هما قوتان متطابقتان في الباطن والظاهر، فيما يصدر عنه وفيما يقوم به، وهما يمثلان «فلسفة» في حياته، دفعته إلى طموح بعنفوان، وأمل بكبرياء، وتميز بلا نظير، وفارس بلا منازل، مما حدا بالحاقدين اتهامه بـ«ادعاء النبوة في مقتبل شبابه، أي: إنه نوى خلق دين للناس، وبالبداهة إحداث نظام روحي اجتماعي، وشرع شريعة، وسن سنناً للمعاش والمعاد».(٥٨) وكان المتنبي ينكر كل ما ينسب إليه ويجحده. وكان يقول: أنا لست أرضى أن أدعى بهذا، وإنما يدعوني به من يريد الغض مني ولست أقدر على الامتناع.(٥٩) ولا نظن أن المتنبي ذهب هذا المذهب، وسن هذه السنن، وخلق قرآناً كما زُعم، لكنَّ قدرته على النظم، وحِكَمه التي زين بها أشعاره والتي تقوم على تجاربه في الحياة، وتأملاته فيها، وتقديسه للقوة، دلّت على أنه خبر نفوس أبناء زمانه، وعرف صوابهم وخطأهم من خلال معاشرتهم، وما يصدر عنهم من

(٥٦) البرقوقي،شرح ديوان المتنبي ٤٨٤٧/٢.(يقول:إن كنت معجباً بنفسي فهذا العجب صادر من رجل عجيب لا يرى لأحد مزية يمتاز به عليه،فليس عجبي إذاً بمنكر.ويروى عن ابن جني أنه قال:سمعت أبا الطيب يقول:إنما لقبت بالمتنبي لقولي... وذكر البيت الثاني والثالث.انظر:الثعالبي يتيمة الدهر، ١١٣/١)

(٥٧) الطناحي، طاهر أحمد،مقال بعنوان: «فضيلة خلقية» الهلال ، ص ١١٨٢. (مج٤٣ ، سن ١٩٣٤).

(٥٨) البغدادي ، الخطيب ، تاريخ بغداد ، ١٠٤/٤.

(٥٩) البرقوقي، شرح ديوان المتنبي ، ١٧٠/٤-١٧١. (برتني: هزلتني. والسرى: السير في الليل.

أقوال وأفعال، فقد شعر بأن الله منحه من العقل والقوة والعزيمة ما يفوق بها الناس، ولذلك هو جدير بالتميز منهم، لرسم منهجهم في الحياة للتخلص من الذل الذي هم فيه، والضياع الذي يعانون منه، يقول: [من الطويل]

بَرَتْنِي السُّرَى بَرْيَ المُدَى فَرَدَدْنَنِي ... أَخَفَّ عَلَى المَرْكُوبِ مِنْ نَفْسِي جِرْمِي

وَأَبْصَرَ مِنْ زَرْقَاءِ جَوٍّ لأَنَّنِي ... إِذَا نَظَرَتْ عَيْنَايَ سَاوَاهُمَا عِلْمِي

كَأَنِّيَ دَحَوْتُ الأَرْضَ مِنْ خِبْرَتِي بِهَا ... كَأَنِّيَ بَنَى الإِسْكَنْدَرُ السَّدَّ مِنْ عَزْمِي[٦٠]

أليست هذه عظمة مستمدة من «فلسفة القوة» الثائرة في نفسه، وليس كما زعم حاسدوه من ادعائه النبوة، لأن قلوبهم ملئت حسداً، وثارت غيظاً، وفاضت حقداً، مما حدا بهم إلى كيل التهم له، للتخلص منه، لأنه كان يشكّل على عروشهم ومكانتهم ومناصبهم أكبر الخطر. والحقيقة أن ثورته ما كانت إلا ثورة اجتماعية سياسية صرفة، لا دينية كما سنبين. قيل للمتنبي: على من تنبأت؟ قال: على الشعراء. فقيل له: لكل نبي معجزة، فما هي معجزتك؟ قال: معجزتي هذا البيت: [من الطويل]

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى المَرْءِ أَنْ يَرَى ... عَدُوّاً لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ[٦١]

وقيل: إنما سمي متنبئاً لفطنته. وقيل: إن المتنبي قال: أنا أول من تنبأ بالشعر. وقيل غير ذلك.[٦٢]

وكان يقول: لا تشبهني بأحد، ولا تقل: كأنه فلان، أو أشبهه بفلان، فما أحد فوقي، ولا

---

(٦٠) والمدى: السكاكين. وجرمي: جسدي. وزرقاء: هي زرقاء اليمامة عرفت بحدة البصر، تدرك به الشيء البعيد، يضرب المثل بها. وجو: قصبة اليمامة. يقول: إذا نظرت عيناي فغايتاهما أن تعرف ما علمته بقلبي، يعني أنه عارف بأعقاب الأمور. ودحوت: بسطت. والإسكندر: ذو القرنين الذي بنى السد بين يأجوج وبين سائر البلاد يضرب به المثل. يقال (سد الإسكندر) انظر: ثمار القلوب، ص ٨٢. وقد ورد ذكر هذه القصة في القرآن الكريم. انظر: الكهف: ٩٤. والمتنبي يصف كثرة أسفاره في الأرض وتقلبه في البلاد حتى عرف الأرض كلها).

(٦١) انظر البرقوقي، مقالاً بعنوان: «الغموض في شعر المتنبي»، الهلال، ص ١٢٢١. (مج ٤٣ سنة ١٩٣٤).

وانظر البيت في شرح ديوان المتنبي، البرقوقي ٢/٩٣.

(٦٢) القيرواني، ابن رشيق العمدة، ١/١٧٢. وانظر: الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، يوسف البديعي، ص٦٦.

مثلي أحد تشبهني به، فدعني وهذا السيف وفرسي ورمحي حتى نكون معاً في رأي العين شخصاً واحداً يحارب الورى: [من الطويل]

أَمِطْ عَنْكَ تَشْبِيهِي بِمَا وَكَأَنَّهُ ... فَمَا أَحَدٌ فَوقِي وَلا أَحَدٌ مِثْلِي

وَذَرْنِي وَإِيَّاهُ وَطِرْفِي وَذَابِلِي ... نَكُنْ وَاحِداً يَلْقَى الْوَرَى وَانْظُرَنْ فِعْلِي(٦٣)

منطق القوة لا قوة المنطق :

إن المتنبي لا يقول شيئاً يَعِدُ به ولا يفعله، وهو لا يأبه بالأخساء والأرذال إذا عابوه، ولا يضيره الجهال إذا جهلوه ولم يعرفوه، وبجهل الجاهل أنه في الحال التي يملك فيها الأرض يعدّ نفسه معسراً مقارنة بمقتضى همته، وأنه إذا علا السماء وركب السماكين عدَّ نفسه راجلا لاقتضاء همته ما فوق ذلك، لأن همته تريه كل شيء يطلبه حقيراً، وأن الغاية القصوى قصيرة في عينيه، وأن من يطلب ما يطلبه من الشرف والرفعة استوى لديه الحياة والقتل، لأنه وطَّن نفسه على الهلاك، يقول: [من الطويل]

قِفَا تَرَيَا وَدْقِي فَهَاتَا الْمَخَايِلُ ... وَلا تَخْشَيَا خُلْفاً لِمَا أَنَا قَائِلُ

وَمِنْ جَاهِلٍ بِي وَهْوَ يَجْهَلُ جَهْلَهُ ... وَيَجْهَلُ عِلْمِي أَنَّهُ بِيَ جَاهِلُ

وَيَجْهَلُ أَنِّيَ مَالِكُ الأَرْضِ مُعْسِرٌ ... وَأَنِّي عَلَى ظَهْرِ السِّمَاكَيْنِ رَاجِلُ

تُحَقِّرُ عِنْدِي هِمَّتِي كُلَّ مَطْلَبٍ ... وَيَقْصُرُ فِي عَيْنِي الْمَدَى الْمُتَطَاوِلُ

وَمَنْ يَبْغِ مَا أَبْغِي مِنَ الْمَجْدِ وَالْعُلا ... تَسَاوَى الْمَحَايِي عِنْدَهُ وَالْمَقَاتِلُ(٦٤)

بهذه الفلسفة يعيش المتنبي ويحيا، يصول ويجول، ينادي بها، ويدعو إليها، ويحث عليها، لأن الدنيا من وجهة نظره، تحكم بمنطق القوة لا بقوة المنطق، وعلى الإنسان أن يكون قوياً حتى يحمي جانبه، ويحقق ما يصبو إليه، فهو يأمل من أمته أن تتمسك بالقوة، لأن الممالك لا تبنى إلا على حدِّ السيوف، وما أخذته اقتساراً وغلاباً، لا ما جاء عفواً، ولا يتأتى ذلك إلا بقطع رؤوس الأعداء، والقضاء عليهم، يقول: [من البسيط]

(٦٣) البرقوقي شرح ديوان المتنبي ٣/٢٨١. (أمط: أزل. وإياه: يريد النصل. والطرف: الفرس. والذابل: الرمح).

(٦٤) السابق ٣/ ٢٩١-٢٩٤. (الودق: المطر. وهاتا: هذه. والمخايل :السحابة الخليقة بالمطر. والخلف: إخلاف الوعد. والمحايي والمقاتل: جمع المحيا والمقتل. وهما مصدران ميميان بمعنى الحياة والقتل).

أَعْلَى الْمَمَالِكِ مَا يُبْنَى عَلَى الأَسَلِ والطَّعْنُ عِنْدَ مُحِبِّيهِنَّ كَالْقُبَلِ

وَمَا تَقَرُّ سُيوفٌ فِي مَمالِكِهَا حَتَّى تُقَلْقَلُ دَهْراً قَبْلُ فِي القُلَلِ(٦٥)

وعَلَى الرغم من المآخذ التي سُجلّت عليه في قوله :[مجزوء الرجز]

أَيَّ مَحَلٍّ أَرْتَقِي أَيَّ عَظِيمِ أَتَّقِي

وَكُلُّ مَا قَدْ خَلَقَ اللَّـ ـهُ وَمَا لَمْ يَخْلُقِ

مُحْتَقَرٌ فِي هِمَّتِي كَشَعْرَةٍ فِي مَفْرِقِي(٦٦)

فإنه يرى نفسه فوق البشر من شدة ثقته بنفسه، لأنه عظيم في شخصه، عالٍ في همته، متفرد في فنه، متميز في إبائه وأنفته، وما دام الأمر كذلك فإنه ارتقى إلى أعلى المراتب، وسما إلى أعلى المنازل، فلا عظيم في زمانه يخافه ويخشاه، وإذا كان ما خلقه الله وما لم يخلقه يعيش بهذا المستوى، يقبل الضيم والقهر، والذل والخنوع، والاستسلام والخضوع فهو محتقر في همته، لا يستحق الاحترام، ولا يعتمد عليه في تحقيق الغايات التي يتطلع إليها المتنبي من العز والكرامة، لأنه طامع في تحقيق أهدافه ومراميه، وطامح إلى الوصول إلى العلياء لأبناء قومه الذين عانوا الفساد والاضطهاد، فهو يدعو إلى الانتفاض، والتخلص من الظلم الذي ساد العباد، إذ لم يعد هو يطيقه، ولذلك أخذ يدفعه عن نفسه، يقول: [من الطويل]

وَمَا زِلْتُ طَوْداً لا تَزُولُ مَنَاكِبِي إِلَى أَنْ بَدَتْ لِلضَّيْمِ فِيَّ زَلازِلُ(٦٧)

دعوة العرب والمسلمين إلى التمسك بالقوة وإقامة دولتهم المنشودة:

إنه يرى أن العرب جديرون بالملك والسيادة، شريطة أن ينفضوا ما ران عليهم من ألوان العذاب والذل والقهر، فليس هناك بديل لحكم العرب إلا بالعرب، يقول: [من المنسرح]

---

(٦٥) السابق ١٦٣/٣. (القلل: جمع قلة، أعلى الرأس من قلة الجبل) .

(٦٦) السابق ٨١/٣

(٦٧) السابق ٢٩٣/٣.

وإنَّمَا النَّاسُ بالمُلُوكِ وَمَا تُفْلِحُ عُرْبٌ مُلُوكُهَا عَجَمُ
لا أَدَبٌ عِنْدَهُمْ وَلا حَسَبٌ وَلا عُهُودٌ وَلا ذِمَمُ
بِكُلِّ أَرْضٍ وَطِئْتُهَا أُمَمٌ تُرْعَى بِعَبْدٍ كَأَنَّهَا غَنَمُ(٦٨)

ولا غرابة في هذا الأمر، لأن الخلافة العباسية تضعضعت وضعفت، وآل ذلك إلى تفككها، إذ استقل الولاة بالأقاليم النائية عن مركزهم لاستخفافهم بهم، وكان الأمراءُ يَخلعون الخلفاءَ، ويولون الضعيف منهم، لتبقى السيطرة عليهم نافذة، ولم يعد للخليفة كلمة، فهو سجين قابع في قصره كالببغاء يردد ما يقوله القواد له، فهذه دولة بني بويه تستقل بفارس، وعز الدولة بن بويه في بغداد، وعبيد الخلفاء من الأتراك، يؤمّرون على الناس، والإخشيديون في مصر يتوارثون الحكم فيها، منهم كافور، وأما دمشق فكان واليها يهودياً... والحديث يطول في سرد هذا التاريخ المؤلم،(٦٩) فماذا نريد من المتنبي أن يفعل؟ وماذا نريده أن يقول؟ الرزايا سادت، والمصائب استحكمت، لكن المتنبي لم ييأس، ينادي، يصرخ، يثور، يستنهض الهمم، فقد تعذر عليه أن يجد في العرب نخوة وعزة وكرامة، فأخذ يحرك مشاعر المسلمين لأنهم أولى بالحكم من غيرهم فهل من مجيب ؟: [من البسيط]

سَادَاتُ كُلِّ أُنَاسٍ مِنْ نُفُوسِهِمُ وَسَادَةُ المُسْلِمِينَ الأَعْبُدُ القَزَمُ
أَغَايَةُ الدِّينِ أَنْ تُحْفُوا شَوَارِبَكُمْ يَا أُمَّةً ضَحِكَتْ مِنْ جَهْلِهَا الأُمَمُ؟!
مَا أَقْدَرَ اللهَ أَنْ يُخْزِي خَلِيقَتَهُ وَلا يُصَدِّقَ قَوْماً فِي الَّذِي زَعَمُوا(٧٠)

فهو يشير كما نلاحظ إلى أن الله تعالى أَمَّرَ على المسلمين لئيماً ساقطاً مثل كافور لإخزائهم، وإنما فعل الله بهم ذلك عقوبة لهم. فقد ساد اللؤماء فعمَّ اللؤم والأذى والجهل،

---

(٦٨) السابق ٤/١٧٩.

(٦٩) انظر مزيداً من التفصيل عن هذه الحوادث والوقائع: السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٣٥ و٣٣٥و ٣٥٠.المسعودي،مروج الذهب ٤/٥٣و٨٥و١١٥وما بعدها،و١٤٥.ابن العمراني،الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص ١٧٩-١٨٠. مسكويه، تجارب الأمم، ٢/٩٤وما بعدها. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨. فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، ٣/١٤٦.

(٧٠) البرقوقي، شرح ديوان المتنبي ٤/٢٨١.

فهل رضي الناس بتملك العبيد عليهم؟ وهل حدث ذل الآن، أم هو قديم؟ إذ لم يعد في الدنيا من الكرام الذين يؤنس بهم، يقول: [من الوافر]

أَمَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مَكَانٌ يُسَرُّ بِأَهْلِهِ الْجَارُ الْمُقِيمُ ؟
تَشَابَهَتْ الْبَهَائِمُ وَالْعِبِدَّى عَلَيْنَا وَالْمُوَالِي وَالصَّمِيمُ
وَمَا أَدْرِي أَذَا دَاءٌ حَدِيثٌ أَصَابَ النَّاسَ أَمْ دَاءٌ قَدِيمُ(٧١)

ويرى المتنبي أن المصيبة قد أخذت تتعاظم حين مهد أهل مصر لعبد السوء سيادتهم، فملكوه أمرهم، وانقادوا إليه بل أطاعوه، وقد نام سادات مصر وأشرافها، وغفلوا عن أراذلها حتى عاثوا في الأرض فساداً، فأكلوا أموال الناس وأرزاقهم، وكلما نهبوا شيئاً طلبوا المزيد، يقول: [من البسيط]

أَكُلَّمَا اغْتَالَ عَبْدُ السُّوءِ سَيِّدَهُ أَوْ خَانَهُ فَلَهُ فِي مِصْرَ تَمْهِيدُ ؟
نَامَتْ نَوَاطِيرُ مِصْرٍ عَنْ ثَعَالِبِهَا فَقَدْ بَشِمْنَ وَمَا تَفْنَى الْعَنَاقِيدُ(٧٢)

يأسه بسبب الضعف الذي ساد أمته :

نلاحظ أن المتنبي قد يئس من هؤلاء وهؤلاء، فما أشفى غليله أحد، لأنهم سلّموا زمام أمورهم لغير ذات الشوكة، واستسلموا لواقعهم المهين، ولم يكن هذا الحكم جزافاً، بل من خلال تجربة وخبرة، يقول: [من الوافر]

إِذَا مَا النَّاسُ جَرَّبَهُمْ لَبِيبٌ فَإِنِّي قَدْ أَكَلْتُهُمُ وَذَاقَا
فَلَمْ أَرَ وُدَّهُمْ إِلاَّ خِدَاعاً وَلَمْ أَرَ دِينَهُمْ إِلاَّ نِفَاقَا(٧٣)

إن دعوته قوبلت بالرفض، وثورته جوبهت بالصدّ، فتبددت الآمال، وتحطمت الأماني، فما كان منه إلا أن غادر السرب الذي استمرأ الذل، وتنحى عنه، يغرد وحده، طامعاً في تحقيق المآرب، لأن فلسفته في الحياة لم تجد أذناً صاغية، وعبقريته لم تجد عقلاً مدركاً،

(٧١) السابق ٤/٢٨٢. (والصميم الصريح النسب الخالص .وعبدّى جمع عَبْد ، أو اسم جمع).

(٧٢) السابق ٢/١٤٣-١٤٤. (بشمن: أخذتهن التخمة من كثرة الأكل.والعناقيد: الأموال).

(٧٣) السابق ٣/٤٧.

وقوته لم تلق دعماً راسخاً، وحظه العثر حال دون الوصول إلى ما صبا إليه، ذلك أن الفهم والعلم والعقل لا تجتمع مع الحظ في الدنيا، ولما كان الأمر كذلك فإنه يطلب النصرة بحد السيف، ويركب الظلم في كل حال، أي يظلم أعداءه بسيفه، فإنه لا يمكن إدراك شيء البتة إلا بالعزم عليه، فعلى الإنسان أن يعزم على البعيد لينالـه ولا يمنعه منه خوف بعده، فإنه بالعزم يقربه ويحققه، يقول: [من الطويل]

وَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالنَّارِ فِي يَدِي ... بِأَصْعَبَ مِنْ أَنْ أَجْمَعَ الْجِدَّ وَالْفَهْمَا

وَلَكِنَّنِي مُسْتَنْصِرٌ بِذُبَابِـهِ ... وَمُرْتَكِبٌ فِي كُلِّ حَالٍ بِهِ الْغَشْمَا

إِذَا قَلَّ عَزْمِي عَنْ مَدَى خَوْفَ بُعْدِهِ ... فَأَبْعَدُ شَيءٍ مُمْكِنٌ لَمْ يَجِدْ عَزْمَا(٧٤)

إنه يتحدى الزمان، ويرى أن همته أعلى من أن يكون في وسع الزمان الوصول إليها، يقول: [من البسيط]

أُرِيدُ مِنْ زَمَنِي ذَا أَنْ يُبَلِّغَنِي ... مَا لَيْسَ يَبْلُغُهُ مِنْ نَفْسِهِ الزَّمَنُ(٧٥)

ضاقت عليه الأرض، وعزَّ الصديق، وتعاظمت المصائب، وكثرت الفتن، وساد الذل والظلم والاستبداد، ولم تجد دعوته أذناً صاغية، يقول: [من الخفيف]

مَا مُقَامِي بِأَرْضِ نَخْلَةَ إِلاَّ ... كَمُقَامِ الْمَسِيحِ بَيْنَ الْيَهُودِ

عِشْ عَزِيزاً أَوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ ... بَيْنَ طَعْنِ الْقَنَا وَخَفْقِ الْبُنُودِ

وَاطْلُبِ الْعِزَّ فِي لَظَى وَذَرِ الذُّلَّ (م) ... وَلَوْ كَانَ فِي جِنَانِ الْخُلُودِ

أَنَا تِرْبُ النَّدَى وَرَبُّ الْقَوَافِي ... وَسِمَامُ الْعِدَا وَغَيْظُ الْحَسُودِ

أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارَكَهَا اللَّـ ... ـهُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثَمُودِ(٧٦)

نلاحظ أنه يعبر عن شخصيته وذاته وكينونته، فهو في قوم من بني كلب يعيشون بقرية

(٧٤) السابق ٤/٢٣٤. (الذباب: حد السيف. والغشم: الظلم).

(٧٥) السابق ٤/ ٣٦٤.

(٧٦) السابق ٢/٤٤-٤٨.

(نخلة) بالقرب من (بعلبك) استمرؤوا الهوان والذل، ولذلك عدهم أعداءه كما كان اليهود أعداء السيد المسيح عليه السلام، وثمود أعداء صالح عليه السلام، فما كان منه إلا أن صرخ صرخته المدوية التي تهز ضمير كل إنسان عنده بقية من كرامة، من أجل أن يعيش عزيزاً ممتنعاً من الأعداء عصياً عليهم، أو أن يموت بكرامة في الحرب، لأن الموت أفضل من العيش في ذل، فهو يربأ بنفسه عن أن يعيش بينهم، ، لأنه يرى في نفسه أنه أخو الجود، وصاحب القوافي ومبدعها، وقاتل أعدائه، وقاهر حساده. ويذكر الواحدي أن أبا الطيب بالبيت الأول لقب بـ(المتنبي) لتشبيهه نفسه بالسيد المسيح وبصالح عليهما السلام.[٧٧] والأمر عندي ليس كذلك، لأن المتنبي يقول :(تداركها الله) في البيت الأخير، وهي جملة معترضة دعاء عليهم، أي: أدركهم الله بالهلاك والفناء لينجو منهم. وأغلب الظن أنه لم يكن قد ادعى النبوة كما ذكرت المصادر، وأوردت الأخبار، لأنه كان يرى في نفسه الرجل المناضل المجاهد الثائر على الظلم والفساد والخنوع والذل، ولذلك وجد هذه التهم تكال إليه من كل حدب وصوب، للتخلص منه بأية طريقة، خاصة أن الطعن بعقيدته ودينه هو أيسر السبل للقضاء عليه، مما حدا به أن ينصّب نفسه مصلحاً اجتماعياً وسياسياً وقومياً، يستنهض الهمم، ويشحذ النفوس، ويثير العزائم، ويحرض على التخلص من الخنوع والخضوع ،ويجوب القرى والبلدان،ويقطع الفيافي والقفار، ويتجشم الأسفار، بكل شجاعة وإقدام،من أجل تحقيق ما يصبو إليه، فهو لم يقيد نفسه بمكان بعينه، وبخاصة إذا لم يطب له ذلك المكان.[٧٨]

العزم على تحقيق الطموح :

المتنبي جدير بالملك، لأن العرب والمسلمين في سبات عميق، إنه قادر على أن يطوف في الآفاق، دون أن يمعن في تراجع أو استسلام، إنه ذو عزيمة وإقدام، يقيم هنا، ويرحل إلى هناك، لا يعرف طريقاً إلى الخوف،ولا سبيلا إلى الهوان، لا يقبل الضيم، ولا يرضى بالدنية، ولا يبالي بالحياة إذا ذهبت عنه، أو الدنيا إذا ولّت، إنه يحث النفس على التقدم فيما تكرهه الدنيا من التعظم، وترك الانقياد لها، إنه صاحب النفس الأبية التي لا تقبل الظلم

(٧٧) انظر: الثعالبي يتيمة الدهر ١١٣/١. الواحدي ، شرح ديوان المتنبي، ص ٣٥.

(٧٨) انظر هذا المعنى في: البرقوقي ، شرح ديوان المتنبي ، ٣٢٧/٣.

ساعة، ولا يقبل حكم أحد عليه إلاّ حكم الله الذي خلقه، ومن آمن به، فإنه لا يجد لذة إلا بالعزة والكرامة، ومن طلب ذلك ،فإنه يجد متعة بالحرب،يقول:[من الطويل]

تَغَرَّبْ لا مُسْتَعْظِماً غَيْرَ نَفْسِهِ وَلا قَابِلاً إلاَّ لِخَالِقِهِ حُكْمَا
يَقُولُونَ لي مَا أنْتَ في كُلِّ بَلْدَةٍ وَمَا تَبْتَغي؟مَا أَبْتَغي جَلَّ أَنْ يُسْمَى
وَإنّي لَمِنْ قَوْمٍ كَأَنَّ نُفُوسَنَا بِهَا أَنَفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَا
كَذَا أَنَا يَا دُنْيَا إذَا شِئْتِ فَاذْهَبي وَيَا نَفْسُ زِيدي في كَرَائِهِهَا قُدْمَا!!
فَلا عَبَرَتْ بي سَاعَةٌ لا تُعِزُّني وَلا صَحِبَتْني مُهْجَةٌ تَقْبَلُ الظُّلْمَا(٧٩)

ما الذي كنى عنه المتنبي؟ وماذا أراد بقوله: (جل أن يسمى)؟ أليس الملك أوالخلافة أو الإمارة أو على الأقل الولاية؟(٨٠) كيف يصل إلى ما أضمر؟ وكيف يحقق ما طمح إليه وصبا؟ أليست القوة هي السبيل الوحيد عنده، لا مناص منها؟ أليست هي الطريق إلى الخلاص؟ أليست هي جادة الصواب إلى الحرية؟ إذن لا عجب في أن يبدع بتصوير البطولة من أجل العزة والإباء، والكرامة والمجد، والأنفة والكبرياء، فهو يرى أن الأشياء لا تتحقق إلا غلبة وقهراً، دون حاجة إلى نيلها بذل السؤال، فما أخذ بالقوة لا يسترجع إلا بالقوة، يقول: [من الخفيف]

مَنْ أَطَاقَ الْتِمَاسَ شَيءٍ غِلابَا وَاغْتِصَاباً لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالا(٨١)

ويعلق العكبري على هذا بقوله:الغلبة طبع الحياة،والمسألة طبع الموت، والنفس لا تحب الموت، فلذلك تحب أخذ الشيء بالغلبة.(٨٢)

---

(٧٩) السابق ٤/٢٣٥.

(٨٠) يقول لكافور: [من الطويل]

إذَا لَمْ تُنِطْ بي ضَيْعَةً أَوْ وِلايَةً فَجُودُكَ يَكْسُوني وَشُغْلُكَ يَسْلُبُ

يلتمس ولاية صَيْدَاء. فأجابه كافور: لستُ أجسر على توليتك صيداء لأنك على ما أنت عليه: تحدث نفسك بما تحدث ، فإن وليتك صيداء فمن يطيقك؟ انظر: البغدادي ، خزانة الأدب ٢/٣٥١.

(٨١) البرقوقي ، شرح ديوان المتنبي ٣/٢٦٦.

(٨٢) العكبري، شرح التبيان على ديوان أبي الطيب المتنبي ٢/١٢٥.ويلح المتنبي على هذه المعنى في كثير من قصائده، انظر مثلاً: البرقوقي ، شرح ديوان المتنبي ٣/٢٣٠و ٤/٢١٧و٢٧٩.

التحدّي والمواجهة:

إن الزمان يواجهه، والأيام تعاكسه، والليالي تعانده، وقد قلب الدهر له ظهر المجن، ما دفع به إلى أن يتحداه، ويرى أن النكبات لا تصيبه لأنه يدفعها بحزمه، فلا تنال منه، لأنه صابر عليها، ولم يقف عند هذا الحد، فالصراع ليس بينه وبين الزمان فحسب، بل أيضاً بينه وبين بني البشر، يقول: [من الوافر]

أَمِثْلِي تَأْخُذُ النَّكَبَاتُ مِنْهُ   وَيَجْزَعُ مِنْ مُلاقَاةِ الحِمَامِ
وَلَوْ بَرَزَ الزَّمَانُ إليَّ شَخْصاً   لَخَضَّبَ شَعْرَ مَفْرِقِهِ حُسَامِي
وَمَا بَلَغَتْ مَشِيئَتَهَا اللَّيَالِي   وَلا سَارَتْ وَفِي يَدِهَا زِمَامِي
إذَا امْتَلأتْ عُيُونُ الخَيْلِ مِنِّي   فَوَيْلٌ فِي التَّيَقُّظِ وَالمَنَامِ(٨٣)

وكما نلاحظ فإن الصراع يدور بين المتنبي وكل شيء: أفراد وجماعات، أيام وليال، ولكنه يرى أنه هو المنتصر، فالناس يخافونه أشد الخوف، لذلك لا يعرفون أمناً لهم في اليقظة، ولا لذة في المنام، وأما الزمان فقد حاول أن ينال من المتنبي ولكن دون جدوى، وحاول أن يستولي عليه، ولكنه خاب فأله، وعاد مدحوراً، ومهما حاول الدهر أن يرميه بنوائبه عن قرب حتى لا يخطئه، فإنه عاجز عن إلحاق الخوف به، لأنه غير خواف ولا جبان ولا ضعيف، يقول: [من البسيط]

إنْ تَرْمِنِي نَكَبَاتُ الدَّهْرِ عَنْ كَثَبٍ   تَرْمِ امْرأً غَيْرَ رِعْدِيدٍ وَلا نِكسِ(٨٤)

ويقول في دفع النوائب عن نفسه بهمته القوية: [من البسيط]

وَلا أَظُنُّ بَنَاتِ الدَّهْرِ تَتْرُكُنِي   حَتَّى تَسُدَّ عَلَيْهَا طُرْقَهَا هِمَمِي(٨٥)

ويصرح بأن النكبات لا تنال منه ولا تصيبه لأنه حازم يدفعها بحزمه، وصابر فلا تؤثر فيه، يقول: [من الوافر]

---

(٨٣) السابق ٤/١٦٣.

(٨٤) السابق ٢/٢٩٧. (الرعديد: الجبان. والنكس: الساقط الفاشل).

(٨٥) السابق ٤/١٥٦.

أَمِثْلِي تَأْخُذُ النَّكَبَاتُ مِنْهُ وَيَجْزَعُ مِنْ مُلاقَاةِ الْحِمَامِ(٨٦)

لذلك لا يجد بدّاً من أن يهمل صروف الزمان ونوائبه، ما دام فيه عرق نابض، وروحه تلازم بدنه، يقول: [من البسيط]

لا تَلْقَ دَهْرَكَ إِلاَّ غَيْرَ مُكْتَرِثٍ مَا دَامَ يَصْحَبُ فِيهِ رُوحَكَ الْبَدَنُ(٨٧)

انظر معي تحديه للأزمان التي تعجز عن الإحاطة بعلمه، وهي لا تحسن أن تكتب ما يمليه من الحكمة النادرة، يقول: [من الطويل]

وَمَا تَسَعُ الأَزْمَانُ عِلْمِي بِأَمْرِهَا وَلا تُحْسِنُ الأَيَّامُ تَكْتُبُ مَا أُمْلِي(٨٨)

أي قوة هذه؟ وأي عظمة نتحدث عنها؟ وأين المتحدِّي للمتنبي؟ وأين النظير والمثيل؟ «تباً لهذا الزمان الذي وضعه هذا الوضع، منحه صفة الملوك ولم يجعله ملكاً، وحرمه المال، ولم يحرمه النفس، فلم يوائم بين نفسه وحاله ... اعتداد بالنفس لا إلى حدّ، وطموح ليس بعده طموح، ونقمة على الزمان لأنه لم يسعفه، ونقمة على الناس لأنهم لم يحققوا أمله هذا كله روح فلسفة المتنبي وكل ما قاله من حكم فهو صدى لهذا الوضع، وترجمة لهذه الأحداث، وتعبير عن شعوره بها. وأوضح ما تنتجه هذه الحال في نفس كنفس المتنبي «فلسفة القوة»وكذلك كان، فالمتنبي قوي في التعبير عن نفسه، قوي في الحملة على الناس وعلى الزمان، تتجلّى القوة في كل أقواله، وفي جميع حالاته، وهذه القوة أكثر ما تكون في سنيه الأولى أيام كان ينتقل في البلاد يدبر خطته ليحقق أمله».(٨٩)

إنه تغنى بشعره في وصف شعوره، وإظهار قوته وعظمته وكبريائه وترفعه، وإبراز عزيمته القعساء، وقد بثّ ذلك في ثنايا قصائده على اختلاف أغراضها، وأوضح لنا مدى التناغم بين نفسه وشعره، والتناسق بين قوته وشخصه، فقد أبى أن يخضع لذوي السلطة، وشاء أن يعيش «عيشة الرفعة والشهرة بالملك أو بالولاية، فرأى أن يتصل بالملوك للاستفادة

(٨٦) السابق ٤/١٦٣.

(٨٧) السابق ٤/٣٦٤.

(٨٨) السابق ٣/١٧٩.

(٨٩) أمين، أحمد، مقال بعنوان: «هل كان المتنبي فيلسوفاً»، الهلال ،ص ١١٣٧.(مج ٤٣سنة١٩٣٤).

منهم والاستعانة على تحقيق غرضه بهم وبمنحهم وبإيجاد الصلة بينه وبينهم ... ثم هو لا يتنزل إلى مدح غير العظماء، وإذا أنشد شعره أنشده في علو وكبرياء، فإذا لم يتحقق غرضه أو أحسّ بتيه ممدوحه عليه، ثار ثورة من جرحت عزته، ونيل من كبريائه، وكأنما تجلّت له الحقيقة، وهي صعوبة الجمع بين نفس تمتلئ عزة وشاعر يقف شعره على المديح فقد حولته شؤون الحياة من ضعف إلى قوة،ومن ضعة إلى رفعة،وبذلك فلسف الحياة كلها فلسفة قوة».[٩٠] يقول: [من البسيط]

لَيْسَ التَّعَلُّلُ بِالآمَالِ مِنْ أَرَبِي ... وَلا الْقَنَاعَةُ بِالإقْلالِ مِنْ شِيَمِي

لَقَدْ تَصَبَّرْتُ حَتَّى لاتَ مُصْطَبِرٍ ... فالآنَ أُقْحِمُ حَتَّى لاتَ مُقْتَحَمِ

رِدِي حِيَاضَ الرَّدَى يَا نَفْسُ وَاتَّرِكِي ... حِيَاضَ خَوْفِ الرَّدَى لِلشَّاءِ وَالنَّعَمِ!

إِنْ لَمْ أَذُرْكِ عَلَى الأَرْمَاحِ سَائِلَةً ... فَلا دُعِيْتُ ابْنَ أُمِّ الْمَجْدِ وَالْكَرَمِ[٩١]

إن طلب النوال من الملوك والأمراء مقبول غير مرذول، واستعطافهم مستحسن غير مردود، وهو حق للشاعر لا ضير فيه ولا عيب، ولا يعد نقيصة، بل يعد فضيلة من الفضائل التي لا يحسن أن يوظفها إلا من أُوتي مقدرة غير طبيعية،وعبقرية غير مألوفة، يظهر فيها التفوق، «فالمتنبي لم يكن يبتذل حقه في مواقف المدح، ولم ينزل إلى مدح كل طامع في قصيدة،ولا رضي لنفسه مع الذين ارتضاهم لمديحه مقاماً دون مقام الحفاوة والكرامة، فينشدهم الشعر وهو جالس، أو يقف لديهم وقفة التجلة والمهابة، ومنهم من كان يتخلّى له عن مكانه، ويجلس بين يديه في مقام المادح من الممدوح، ومع هذا وذاك لم ينس غضاضة النوال، ولم يسكن إلى دوام هذه الحال، لأنه يريد أن يكون مشكوراً لا شاكراً لذوي الدسوت والأموال»[٩٢] يقول: [من الطويل]

إِذَا الْفَضْلُ لَمْ يَرْفَعْكَ عَنْ شُكْرِ شَاكِرٍ ... عَلَى هِبَةٍ فَالْفَضْلُ فِيمَنْ لَهُ الشُّكْرُ[٩٣]

---

(٩٠) السابق ، ص١١٣٩.(مج ٤٣سنة ١٩٣٤).

(٩١) البرقوقي، شرح ديوان المتنبي ، ٤/١٥٥،١٥٧و١٦٠. (ولات: بمعنى ليس. والنعم: الإبل).

(٩٢) العقاد ، عباس محمود،مقال بعنوان: «شخصية المتنبي في شعـره»، الهلال،ص١١٢٤. (مج٤٣سنة١٩٣٤).

(٩٣) البرقوقي ، شرح ديوان المتنبي ٢/٢٥٤.

ومما لا شك فيه أن المتنبي بهذا البيت يبين عظمته، ويعلن ترفعه، ويرسم للأدباء طريقاً يحفظون به كرامتهم، إذ لا بدّ من «الترفع عن هبة الناقص والتنزه عن الأخذ منه حتى لا تحتاج إلى أن تشكره. وهذا المعنى يتضمن الحض على أن يحترم الأديب نفسه وأن يربأ بأدبه عن أن يسف به».[٩٤] ويعلق العكبري على هذا البيت بقوله: «هذا من كلام الحكمة، قال الحكيم: من لم يرفع نفسه عن قدر الجاهل يرفع قدر الجاهل عليه».[٩٥]

عزة وكرامة وإباء:

إن كرامته وعزة نفسه ومبادئه وعنفوانه وشعوره بالقوة وامتلاكه العزيمة لم تسمح له بالبقاء لدى هذا الأمير أو ذاك، فها هو ذا يغادر بلاط سيف الدولة الذي كان يغدق عليه العطاء، ويهب له الصلات، ويأنف من الجوار الذي ألحق به الضيم، ويعزف عن المكان الذي ساد فيه الحسد، ويهجر مجالس النعيم التي مُسّت بها كرامته، ويعرض عن القصور التي لم تحفظ له مكانته، ويرى أن ما يفعله هؤلاء يكرهه الله ويكرهه الكرم الذي يأبى عليهم إلا أن ينصفه منهم ويكافئه بالجميل، ذلك أنهم حاولوا أن يجدوا له عيباً لكنهم عجزوا عن ذلك، وهو كعادته أخذ يتغنى برفعته وبعد همته، وأنه لا يلحقه العيب والنقصان يقول: [من البسيط]

كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْباً فَيُعْجِزُكُمْ ... وَيَكْرَهُ اللهُ مَا تَأْتُونَ وَالْكَرَمُ

مَا أَبْعَدَ الْعَيْبَ وَالنُّقْصَانَ عَنْ شَرَفِي ... أَنَا الثُّرَيَّا وَذَانِ الشَّيْبُ وَالْهَرَمُ[٩٦]

فقد أبى البقاء في هذه الأجواء وارتحل عنها حفظاً لكرامته، متطلعاً لتحقيق طموحه وآماله، إني لأعجب من هذه القوة التي دفعت به إلى هذا الترفع والجفاء، وإلى القطيعة والهجران، لا شك أنه يملك العزيمة والقدرة التي تؤهله للاستغناء عن ولي نعمته، فقد خُلق لأن يكون قوياً في شخصه وذاته، قوياً في عزيمته وقراره، وعليه أن يحافظ على هذه القوة لأنها نعمة من الله، وهي أعظم الفضائل التي يودعها الله في خلقه. وكان المتنبي يعجب أن

---

(٩٤) السابق نفسه .

(٩٥) شرح التبيان على ديوان أبي الطيب المتنبي ٣٦٧/١.وانظر: الواحدي،شرح ديوان المتنبي، ص٤٨٥.

(٩٦) البرقوقي ، شرح ديوان المتنبي ٨٧/٤ ٨٨

الله قد حباه بنعمتين، الأولى: موهبة الشعر، وهي سرُّ قوته لما لها من سحر نافذ قادر على السيطرة على قلوب الناس، والأخرى: قوة نفسه وبطولته التي شهد له بها الجميع، فالأولى: جعلته شاعر العربية بلا منازع ورب القوافي، وهي التي فتحت له أبواب المجد، ورفعت من قدره، ونوهت بذكره، وأشادت بعظمته، وبينت آماله، وكشفت طموحاته، وبنت له مكانة سامقة، ووطدت له منزلة رفيعة، وسيرت في الناس سيرته، ومع ذلك، فإنه يعزف عنها إلى ما وقر في قلبه، وما وصل إليه إدراك عقله، وهذا يتجلى في منازلة الأقران، ومقارعة الفرسان، وخوض المعارك والحروب، لأنه لا يريد أن يشغل نفسه عن طلب المعالي بنظم الشعر في مدح من لا قيمة عنده للشعر.(٩٧)

أطماعه وطموحاته :

وعلى أية حال فإن المتنبي أعطى أكثر مما أخذ، أعطى طمعاً في الحصول على فخر يتمثل في ملك لا طمعاً في مال، يقول لكافور الإخشيدي: [من الطويل]

وَمَا رَغْبَتِي فِي عَسْجَدٍ أَسْتَفِيدُهُ وَلَكِنَّهَا فِي مَفْخَرٍ أَسْتَجِدُّهُ(٩٨)

ويقول لأبي العشائر الحمداني: [من الوافر]

فَسِرْتُ إِلَيْكَ فِي طَلَبِ الْمَعَالِي وَسَارَ سِوَايَ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ(٩٩)

إنه يسعى إلى ملك، إلى جاه، إلى مجد، لأن شروط الملك أو الإمارة متوافرة في شخصه، متحققة في ذاته، فهو ذو نفس تملك القوة، وذو شخصية تتمتع بصفات الملوك، وقلبه قلب ملك، ويزيد عليهم بل يتفرد بإمارة الشعر التي يرى فيها أنها تميزه منهم،يقول:[من الخفيف]

فَارْمِ بِي مَا أَرَدْتَ مِنِّي فَإِنِّي أَسَدُ الْقَلْبِ آدَمِيُّ الرُّوَاءِ

وَفُؤَادِي مِنَ الْمُلُوكِ وَإِنْ كَا نَ لِسَانِي يُرَى مِنَ الشُّعَرَاءِ(١٠٠)

---

(٩٧) انظر هذا المعنى في: السابق ٢/٧٦ ٧٧.

(٩٨) السابق ٢/١٣٠.

(٩٩) السابق ٢/٣٢٥.

(١٠٠) السابق ١/١٥٩. (الرواء: المنظر والشارة).

ولا أظن أن شاعراً يجرؤ على أن يقول كما قال المتنبي لممدوحه، وأن يفصح كما أفصح المتنبي الذي أقسم أن يبلغ الممدوح ما في نفسه من طلب ولاية لأنه جدير بها.(١٠١) ولم يقف شاعرنا عند هذا الحد من الطموح والجرأة، بل أخذ يستعرض قوته وقدرته التي دفعت به إلى الوعيد والتهديد،والتخويف والترهيب، ويرى أن ملوك عصره ليس لديهم المقدرة على درء الأخطار عن أنفسهم، والدفاع عنها، يقول: [من البسيط]

أَيَمْلِكُ الْمُلْكَ وَالأَسْيَافُ ظَامِئَةٌ وَالطَّيْرُ جَائِعَةٌ لَحْمٌ عَلَى وَضَمِ
مَنْ لَوْ رَآنِي مَاءً مَاتَ مِنْ عَطَشٍ وَلَوْ مَثَلْتُ لَهُ فِي النَّوْمِ لَمْ يَنَمِ
مِيعَادُ كُلِّ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ غَداً وَمَنْ عَصَى مِنْ مُلُوكِ الْعُرْبِ وَالْعَجَمِ
فَإِنْ أَجَابُوا فَمَا قَصْدِي بِهَا لَهُمُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَمَا أَرْضَى لَهَا بِهِمِ(١٠٢)

فهذه فكرة من وجهة نظر الشاعر تعبر عن حقيقة إنسانية عظيمة، لأنها تمثل البطولة، وتدعم القيم الشخصية عنده، وتثري الفضائل التي اعتنقها المجتمع العربي المتمثلة في بناء المجد والشرف بخوض المعارك وتقتيل الملوك ونشر الرعب، لا بمجالس اللهو وشرب الخمر وسماع القيان. إذن هي فكرة تعبر عن رأي، وهذا الرأي أصبح عنده حقيقة، وعلى العقل أن يتبنى هذه النظرة التي يجب أن يقوم عليها المجتمع الفاضل، الذي ينشد الحرية، والعلا والمجد، والعز والفخر، والسمو بالحياة، ذلك أن الشاعر يعبر عن نفسه بإقامة الدليل، وإيراد البرهان، وإثبات الحجة بقوة البيان.

أيّ قوة هذه التي يراها المتنبي في نفسه؟ إنه القاهر للملوك، إنه الرعب لهم، إنه الإعصار المزلزل لعروشهم في حلّهم وترحالهم، إنه الهاجس المخيف لهم في يقظتهم ونومهم. من يجرؤ من الشعراء غير المتنبي على أن يتوعد من عصاه من الملوك؟ إن قوة الملوك وسلطانهم يخضع لقانون قوته، وإن كبرياءهم تركد عند عظمته، عليهم طاعته، وإجابته، وتبني أفكاره، والنزول عند رغبته وإلا كان القتل مصيرهم. ما أجمل قول الشريف الرضي الذي أصدره في حقه حين قال: «أبو الطيب قائد عسكر».(١٠٣)

---

(١٠١) انظر: السابق نفسه

(١٠٢) السابق ٤/١٦١.

(١٠٣) انظر: الحنبلي، ابن العماد، شذرات الذهب ٣/١٤٢. وابن الأثير، المثل السائر ٣/٢٧١.

إن المتنبي غلّب قوة العقل على هوى العاطفة، إذ أخضعها لنهج مرسوم، ونظام مدروس، فقد كان يتحين الفرص، ويستغل المواقف، ويصانع في أمور كثيرة، والمصانعة عنده وسيلة للوصول إلى غاية يطمع إلى تحقيقها، ومع ذلك فقد كان يؤمن بفلسفة القوة التي دفعته إلى إيثار: «أن يكون مهاجماً على أن يكون مدافعاً وقد جرب موقف الدفاع فلم يغن عنه شيئاً، فليجرب عند سيف الدولة خطة الهجوم، وقد أغنت عنه، فاستطاع أن ينعم بالحياة في ظله تسعة أعوام»،[١٠٤] إذ ظل يدافع عن حقه وشموخه، وكبريائه وقوته، وإبائه وأنفته، وتربعه على إمارة الشعر بلا منازع، يقول في قصيدة مدح فيها سيف الدولة: [من الطويل]

وَمَا الدَّهْرُ إلاَّ مِنْ رُواةِ قَلائِدي ... إذَا قُلْتُ شِعْراً أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدَا

فَسَارَ بِهِ مَنْ لا يَسِيرُ مُشَمِّراً ... وَغَنَّى بِهِ مَنْ لا يُغَنِّي مُغَرِّدَا

أَجِزْنِي إذَا أُنْشِدْتَ شِعْراً فَإنَّمَا ... بِشِعْرِي أَتَاكَ الْمادِحُونَ مُرَدَّدَا

وَدَعْ كُلَّ صَوْتٍ غَيرُ صَوْتِي فَإنَّنِي ... أَنَا الصَّائِحُ الْمُحْكِيُّ وَالآخَرُ الصَّدَى[١٠٥]

شروط غير مسبوقة :

إن فخر المتنبي هو فخر طبيعي صادق لا تكلف فيه لأنه يصدر عن نفس قوية جبارة، تؤمن بالقوة، وتعجب بالنفوس العظيمة والهمم العالية، وهذا ما يفسر ظاهرة الرضى من ممدوحيه الذين كان يعد نفسه فوقهم، ويرى أن الفضائل كلها تجمعت فيه، ولذلك أعجبوا به وبشعره، وقربوه، ونزلوا عند شروطه التي اشترطها عليهم، والتي لم يجرؤ الشعراء من قبله ومن بعده على ذكر شيء منها، ذلك أنه اشترط على سيف الدولة ألّا ينشده إلا وهو قاعد، وأنه لا يقبّل الأرض بين يديه، وأن يقربه في مجلسه، كما اشترط على كافور أن يقف بين يديه وكأنه يأنف من الجلوس بجانبه وفي رجليه خفان، وفي وسطه سيف ومنطقة، وأن يركب على فرسه ومعه حاجبان من ممالكيه وهما بالسيوف والمناطق عن يمينه وشماله، فإذا كان هذا هو موقفه من الملوك، فما بالنا بسائر الناس.[١٠٦]

---

(١٠٤) د. حسين، طه، مع المتنبي، ص ٢٠٠.

(١٠٥) البرقوقي، شرح ديوان المتنبي ٢/١٤.١٥

(١٠٦) ابن خلكان، وفيات الأعيان ١/١٢٢.

المتنبي يصنع التاريخ :

والحق يقال: إن الرجل العظيم هو الذي يصنع التاريخَ والرجالَ على حدّ سواء ،

ألم يصنع المتنبي(سيف الدولة) بمدائحه؟ ألم يرفع العبد (كافوراً) بغرر قصائده؟ ألم يخلد تاريخه الأسود بهجائه المقذع؟ ألم يصنع منه سخرية مدى الدهر بتهكمه منه واستهزائه به؟ ألم يُخرس الشعراء ويلغهم من قاموس التاريخ بقوله؟: [من الطويل]

أَفي كُلِّ يَوْمٍ تحُتَ ضِبْني شُوَيْعِر   ضَعيفٌ يُقَاويني قَصيرٌ يُطاوِلُ ؟

لِسَاني بِنُطْقي صَامِتٌ عنهُ عَادِلٌ   وَقَلْبي بِصَمْتي ضَاحِكٌ مِنْهُ هَازِلُ(١٠٧)

ألم يرد كيد الكائدين، وحسد الحاسدين، وهو يعلن انتصاره عليهم، بكل كبرياء وعظمة وإجلال؟ :[من الوافر]

أَرَى المُتَشَاعِرِينَ غَرُوا بِذَمّي   وَمَنْ ذا يَحْمَدُ الدَّاءَ العُضَالا؟

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ   يَجِدْ مُرّاً بِهِ المَاءَ الزُّلالا(١٠٨)

ألم يترفع عن الرد على الأمراء والوزراء، أمثال (معز الدولة) الأمير، و(المهلبي) الوزير وغيرهما حين ذموه وأغروا بعض الشعراء بهجائه؟(١٠٩) فقال: [من الكامل]

وَإذَا أَتَتْكَ مَذَمَّتي مِنْ نَاقِصٍ   فَهْيَ الشَّهَادَةُ لي بِأنّيَ كَامِلُ(١١٠)

ألم ير أنه غريب في هذه الدنيا، لأن غربته تتمثل في فقد النظير؟ ولذلك يعرض عن ذكره بالسوء في غيبته احتقاراً له، يقول: [من البسيط]

أَبْدُو فَيَسْجُدُ مَنْ بِالسُّوءِ يَذْكُرُني   وَلا أُعَاتِبُهُ صَفْحاً وَإهْوَانَا

---

(١٠٧) البرقوقي ، شرح ديوان المتنبي ٢٣٧/٤ . (الضبن: ما بين الأبط والكشح) .

(١٠٨) السابق ٣٤٤/٣.

(١٠٩)انظر: الثعالبي ، يتيمة الدهر ١٢٠/١.

(١١٠) البرقوقي، شرح ديوان المتنبي ٣٧٦/٣.وانظر قصة هؤلاء الأمراء والشعراء في: البغدادي، خزانة الأدب ٣٥٥/٢. ويوسف البديعي ، الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ، ص ١٤٣.

وَهَكَذَا كُنْتُ فِي أَهْلِي وَفِي وَطَنِي إِنَّ النَّفِيسَ غَرِيبٌ حَيْثُمَا كَانَا[١١١]

ألم يكن صوته يعلو كل صوت، وهو يعلن كما رأينا شموخه وترفعه عن النقائص من الغزل والتشبيب، وعن الرذائل من السير على نهج الشعراء وعن الدنايا من تعاطي الخمرة ومعاقرتها ؟؟ ويكفي أن نقرأ قوله: [من المنسرح]

أَنَا الَّذي بَيَّنَ الإِلَهُ بِهِ الْـ أَقْدَارَ والْمَرْءُ حَيْثُمَا جَعَلَهْ

جَوْهَرَةٌ يَفْرَحُ الْكِرَامُ بِهَا وَغُصَّةٌ لا تُسِيغُهَا السَّفَلَهْ[١١٢]

حتى نتبين كبرياءه وعظمته، إذ لا يتمكن أحد أن يتقدم منزلته التي خصه الله بها، فهو يمثل نقيضتين، وهما فضيلتان له، نقيصتان في غيره، الأولى: أنه جوهرة يتزين الناس بها، ذلك أنه ينوه بمناقبهم، ويشيد بذكر محاسنهم، والأخرى: أنه غصة في حلوق الأخساء الذين لا يقدرون على استساغته، لأنه يكشف عن نقائصهم وعيوبهم. هذا هو المتنبي الذي "لم يُخْلَق للحياة الهادئة الذليلة، وإنما خُلِقَ لحياة الدويّ ولحياة العز، خُلق للذين يهون عليهم رزء جسومهم في سلامة عقولهم وأعراضهم، فلا يحتملون الأذى ولا يغبطون الذليل، يأخذون من هذه الدنيا ما يمكنهم أخذه، راغبين في الفتكة البكر وضرب أعناق الملوك. خلق لطبقة في الأمم التي لا تكسب المجد إلا من تضارب السيوف ومن سنان الرماح. خلق لهذه الأمم التي تقاتل في سبيل العلا وفي سبيل السلم وتبني مملكتها على الأسل، وتطلب حقوقها بالطعن والضرب، لأن الدنيا لمن غلب. هذه هي الحياة التي أعد لها المتنبي، إنها الحياة ممزوجة بالدم بعيدة عن الهدوء والسكينة، مملوءة بالقلق والاضطراب، كلها نزاع وكلها غلاب. إن الحياة التي يريدها أبو الطيب إنما هي حياة القوة: قاتل غالب، هذا هو الهدف الأعلى الذي يرمي إليه المتنبي».[١١٣] ألم يقل: [من الطويل]

إِذَا كُنْتَ تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ بِذِلَّةٍ فَلا تَسْتَعِدَنَّ الْحُسَامَ الْيَمَانِيَا

(١١١) السابق ٤/٣٥٤.

(١١٢) السابق ٤/٣٥٤.

(١١٣) جبري ، شفيق ، مقال بعنوان : «حياة المتنبي»، الهلال ، ص ١١٥٨ .(مج ٤٣سنة ١٩٣٤).

فَمَا يَنْفَعُ الأسْدَ الحَيَاءُ مِنَ الطَّوَى   وَلا تُتَّقَى حَتَّى تَكُونَ ضَوَارِيَا(١١٤)

إن فلسفة القوة عنده تمثل شريعة في حياته، لأن الحياة دون قوة لا تساوي شيئاً، ولا تحقق طموحاً، ولا تبني مجداً، ولا توطد عزاً، ولهذا كان عنفوانه وشموخه، ومطابقة قوله لفعله سبباً في مقتله، إذ طلع بنو أسد عليه لمّا وصل إلى (النعمانية) في موضع يقال له(الصافية) فأراد أن يفرّ، فقال له غلامه: لا يتحدث الناس عنك بالفرار أبداً وأنت القائل: [من البسيط]

وَالْخيلُ واللّيلُ والبيداءُ تعرفُني   والسَّيفُ والرُّمحُ والقرطاسُ والقلمُ(١١٥)

فقال له: «قتلتني قاتلك الله» ثم كرّ راجعاً حتى قتل.(١١٦) ويقال: إنه استشعر هذه الواقعة فقال: [من الكامل]

وَالْعَارُ مَضَّاضٌ وَلَيْسَ بِخَائِفٍ   مِنْ حَتْفِهِ مَنْ خَافَ مِمَّا قِيلا(١١٧)

---

(١١٤)البرقوقي ، شرح ديوان المتنبي ٤/٤١٧ ٤١٨.(الطوى: الجوع).

(١١٥) السابق ٤/٨٥. وقيل في مقتله روايات أخرى ...

(١١٦) القيرواني، ابن رشيق، العمدة ١/١٧١.وابن خلكان،وفيات الأعيان١/١٢٣.والبغدادي، خزانة الأدب ٢/٣٦٢. والبديعي، يوسف، الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، ص ١٧٠ ١٧٥. وقيل: إن فاتك الذي قتل المتنبي هو الذي صاح به وقال له: ألست أنت الذي تقول ، وأنشد البيت. انظر القصة كاملة بروايات متعددة في: ديوان أبي الطيب المتنبي ، تحقيق عبد الوهاب عزام ، ص ٥٨٧ ٥٨٩.

(١١٧) الأمير أرسلان، شكيب ، مقال بعنوان: «المتنبي بين محاسنه ومباذله»، ص١١٩٣. (مج ٤٣ ،سنة١٩٣٤).

خاتمة :

هكذا نرى أن المتنبي ترك للعرب والإنسانية تراثاً شعرياً عظيماً، ملأ الدنيا به مدوياً وشغل الناس،[١١٨] فحفظته الصدور، ورددته الألسن، وتغنى به المنشدون، واقتفاه الشعراء، وشغل به العلماء، وألف النقاد في أبكار كلامه، واختراع معانيه، وامتلأت به بطون الكتب.إنه الشاعر العربي الوحيد الذي فَتن الكلَّ بقوة أدبه، وحسن كلامه، ولذيذ وزنه، وعمق دلالة ألفاظه. إنه شاعر الفرسان، وفارس الشعراء، وترب الندى، ورب القوافي، وسمام العدا، وغيظ الحسود. إنه يؤمن بفلسفة القوة النابعة من النفس، المدعومة بالعقل. إنه صاحب عزيمة وإباء، وأنفة وكبرياء، يدعو إلى التمسك بالقوة والشجاعة، والعزة والمجد، والشهامة والكرامة، والفضيلة والأخلاق. إن القوة التي اعتز بها ودعا إليها ظلّت صرخة ترددها الألسن على مرّ الزمن، لأنها تعبر عن قوة الألم وشدة المرارة، وعمق الأسى الذي يهز كيان أمتنا، بسبب ما تعاني من الظلم والقهر والاستبداد والضياع. فالقوة هي السبيل الوحيد للوحدة والتضامن واسترداد الكرامة المهدورة، وإعادة الوطن السليب، ونشر الأمن والأمان، وإعلان الحرية والاستقلال، و«ما أشبه اليوم بالبارحة!»

(١١٨) انظر: القيرواني ، ابن رشيق ، العمدة ٢١٢/١.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- أسرار البلاغة، الجرجاني، عبد القاهر، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني، ط١، جدة ١٤١٢/١٩٩١.

٣- الإنباء في تاريخ الخلفاء، ابن العمراني، محمد بن علي، تحقيق قاسم السامرائي، ليدن١٩٧٣.

٤- بشار بن برد حياته وشعره، د. مناع، هاشم، دار الفكر العربي، ط١،بيروت ١٩٩٤.

٥- تاريخ آداب العرب، الرافعي، مصطفى صادق، دار الكتاب العربي، ط ٤، بيروت ١٣٩٤/١٩٧٤.

٦- تاريخ الأدب العربي، د. فروخ، عمر، دار العلم للملايين،ط ٢،بيروت ١٩٨٣.

٧- تاريخ بغداد ،البغدادي الخطيب، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت).

٨- تاريخ الخلفاء، السيوطي، جلال الدين، المكتبة التجارية الكبرى،ط٤،القاهرة ١٣٨٩/١٩٦٩.

٩- تجارب الأمم، مسكويه، أحمد بن محمد تحقيق هـ.ف.أمدروز، مطبعة شركة التمدن الصناعية، القاهرة ١٩١٤/ ١٩١٥.

١٠- حصاد الهشيم، المازني، إبراهيم عبد القادر ،، المطبعة العصرية، ط ٧، القاهرة١٩٦١.

١١- خزانة الأدب، البغدادي، عبد القادر بن عمر، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط ٤، القاهرة ١٤١٨/١٩٩٧.

١٢- ديوان أبي الطيب المتنبي، المتنبي، أبو الطيب، تحقيق د.عبد الوهاب عزام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهر ١٣٦٣/١٩٤٤.

١٣- رياض الصالحين، النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف ،، تحقيق د.أحمد راتب حموش، دار الفكر، ط٢، دمشق ١٤١١/١٩٩١.

١٤- شرح التبيان على ديوان أبي الطيب المتنبي ، العكبري، أبو البقاء، دار الطباعة العامرة، القاهرة ١٢٨٧/ ١٨٧٠.

١٥- شرح ديوان المتنبي، البرقوقي، عبد الرحمن، ،دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٠/١٩٨٠.

١٦- شرح ديوان المتنبي، الواحدي،أبو الحسن علي بن أحمد، (د.ن)،(د.م)١٨٦١.

١٧- شذرات الذهب، الحنبلي، ابن العماد، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، ط١، دمشق وبيروت ١٤٠٨/١٩٨٨.

١٨- شرح المعلقات السبع، الزوزني، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت ١٤٠٥/١٩٨٥.

١٩- العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، اليازجي، ناصيف، دار صادر بيروت (د.ت).

٢٠- الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، البديعي، يوسف، تحقيق مصطفى السقا ومحمد شتا، دار المعارف، ط ٢، القاهرة ١٩٧٧.

٢١- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، القيرواني، ابن رشيق، تحقيق د.محمد قرقزان، دار المعرفة، ط١، بيروت ١٤٠٨/١٩٨٨.

٢٢- الفن ومذاهبه في الشعر العربي، د. ضيف، شوقي، دار المعارف، ط١٠، القاهرة ١٩٧٨.

٢٣- في ظلال القرآن، قطب، سيد، دار الشروق، ط١١،بيروت ١٤٠٥/١٩٨٥.

٢٤- في النقد والأدب، الحاوي،إيليا، دار الكتاب اللبناني، ط١، بيروت ١٩٨٠.

٢٥- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، علي بن محمد، دار صادر، بيروت .

٢٦- لسان العرب ابن منظور، محمد بن مكرم، .

٢٧- المثل السائر، ابن الأثير، ضياء الدين، تحقيق د. أحمد الحوفي ود.بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة، ط٢، القاهرة ١٩٧٣.

٢٨- مروج الذهب، المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت ١٣٦٨/١٩٤٨.

٢٩- معجم البلدان، ياقوت الحموي، تحقيق فريد الجندي،دار الكتب العلمية ، ط ١، بيروت ١٤١٠/١٩٩٠.

٣٠- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، وهبه والمهندس، مجدي وكامل، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٩.

٣١- مع المتنبي، د. حسين، طه، دار المعارف، ط١٢، القاهرة ١٩٨٠.

٣٢- وفيات الأعيان، ابن خلكان، أحمد بن محمد، تحقيق د.إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٧٢.

٣٣- يتيمة الدهر، الثعالبي، أبو منصور، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، ط٢، بيروت ١٣٩٣/ ١٩٧٣.

الدوريات :

* مجلة الهلال مجلد رقم ٤٣. نوفمبر ١٩٣٤:

- مقال بعنوان: المتنبي بين محاسنه ومباذله، الأمير أرسلان، شكيب،ص١١٨٩-١١٩٣.

- مقال بعنوان: هل كان المتنبي فيلسوفاً ؟ «أمين، أحمد، ص ١١٣٤-١١٣٩.

- مقال بعنوان : «الغموض في شعر المتنبي البرقوقي،عبد الرحمن،ص ١٢١٣-١٢٢١.

- مقال بعنوان : « حياة المتنبي » جبري، شفيق، ص ١١٥٨- ١١٦٠.

- مقال بعنوان : « جنون العظمة في المتنبي » صدقي،عبد الرحمن، ص١١٧٧-١١٨٢.

- مقال بعنوان : « فضيلة خلقية الطناحي، طاهر أحمد، »، ص ١١٨٢-١١٨٧.

- مقال بعنوان: « شخصية المتنبي في شعره العقاد،عباس محمود،»، ص١١٢٢-١١٢٦.

- مقال بعنوان : « عبرة الشباب » الكيالي، سامي،، ص١١٥٣-١١٥٥.

مقال بعنوان :« أبو الطيب المتنبي » مطران،خليل،، ص ١١٤٠-١١٤٣.

Abstract

An abstract of the research entitled : The Philosophy of Power of Abi al-tayyib al-Mutanabbi [303 – 354 AH]

Dr. Hashim Saleh Manna

AL-Mutanabbi believed that power can only be achieved by mental recognition. So, he was observing things and reality and penetrates to what is beyond. He also believed that the absolute power is a religious, social and humanitarian requirement that everyone should have because the strong person is the one who can create history, adjust to life and survive to maintain peace, justice, keep dignity and unite nation. This faith led him to praise his bravery, championship, glory, strength, etc. He was talented, clever, skillful, ambitious, hardworking, risk-taking, and brave.